

A D H A M A B O U D Y

أدهم العبودي

# عَشْرُ الْجِنِّ

المدينة التي تغطي المغيب

دار الرسم بالكلمات

أدهم العبودي



أسطورة أولى

المدينة التي تخشى المغيب

رواية

معظم هذه الأحداث جرى بالفعل، وشهده الناس بأعينهم وأصبح خرافات تتناقلها الأجيال جيلاً بعد جيل، جرث الأحداث تحديداً في وادي «القرنة» بمدينة «الأقصر»؛ الذي يقع بين المقابر الفرعونية المحفورة في بطن الجبل، والمعابد الجنائزية التي تطوقه.

ولكي تستقيم هذه الأحداث، كان لا بد من بعض الخيال.

باستخفافٍ، ظلّوا يتجاوبون مَعِ مِثْلِ هذه الخُرافاتِ،  
فيما قَبْلَ تلكَ اللَّيْلَةِ، التي لَنْ تَسْقُطَ مِنْ ذَاكِرَتِهِمْ،  
مَهْمَا أُسْقِطَ.

ولو أَقْسَمَ آبَاؤُهُمْ، أو رَوَاهُ النَّوَادِرُ والأَعَاجِبُ  
العجائزُ، إِنْ حَلَفُوا بِالْإِيمَانِ وَعَلَى المَصَاحِفِ والأَنَاجِيلِ،  
عَلَى المَاءِ يَجْمَدُ وَعَلَى الصَّخْرِ يَلِينُ، ولو جَاؤُوا بِأَلْفِ  
دَلِيلٍ مِمَّا يَقْطَعُ الجَدَلَ بالبُرْهَانِ، عَلَى وَقُوعِ أَحْدَاثٍ  
مُشَابِهَةٍ، فِي أَزْمَنَةٍ أُخْرَى، وَأَثْنَاءَ مُصَادَفَاتٍ مُغَايِرَةٍ، مَا  
يَسْتَحِيلُ أَنْ يَرَوْهُ، لَوْلا أَنَّهُمْ رَأَوْا بِأَعْيُنِهِمْ، مَا يَسْتَحِيلُ أَنْ يَرَوْهُ،  
حَتَّى غَبَرَ كُلُّ الخَيَالَاتِ المُسْرِفَةِ فِي الشُّطْطِ والجَنُوحِ.

يحفظون الحكايات القديمة، على ظهر اليد، تربوا عليها، حكايات الجنّ والمردة وحراس المقابر وسادة المعابد والكيانات المسحورة والوحوش، يسمعونها منذ نشأوا، منذ كانوا صغارا يسخرون من هذه القصص، فقط كان آباؤهم يخوفونهم بها، أو يسرون عن رتبة الحياة، لكنهم ظنوا في استحالة حدوثها، إنها حكايات في نهاية الأمر، مجرد حكايات متوارثة، مُختلقة، يهون بها الناس عن خشونة معيشتهم، يجوز أن تتداولها السنتهم في قعدات الفكاهة والتندر، أو يحشون بها فراغ الأذهان المتعبّة عقب كد طويل يستنزف قواهم، في الغيطان والحقول وعلى إسفلت الشوارع المسقي بعرقهم، ثم إن الأساطير لا تخرج من بين صفحات الكتب، هكذا، تتجول بينهم، تُرهبهم، أبدا لم يحدث، ولا أدركوا حدوثه في ناحية قريبة أو بعيدة.

غير أنها خرجت.

بدأ الأمر بصاعقة، تضرب في السماء، أفزعهم أزيزها فاستيقظوا، خرجوا إلى الشوارع والذهول يكتنف إدراكهم بالأشياء، لم ير أحدٌهم صاعقة قبل ذلك التاريخ، مدينتهم دافئة دوماً، تقطن حاشية الجبال، آمنة من تقلبات الجو، يخلو طقسها من أي غضب طاري.

وقفوا يراقبون بطن السماء التي تتفسخ وتهاوى،

كَأَنَّهُا شَرَاذِمٌ مِّنْ غَيْمٍ، وَتَحْدِيفٌ عَلَيْهِمُ الْمَطَرُ سَيْلًا مِّنْ دِمَاءٍ، وَالتَّلْجُ أَحْجَارًا، وَالسَّخَطُ شَرَارَاتٌ، تَمَامًا كَالنَّجُومِ الْمُتَفَلَّتَةِ مِّنْ سَلَاسِلِهَا، وَبَيْنَمَا يَرِاقِبُونَ، احْتَمَوْا بِأَسْقَفِ الْعِشَشِ وَجُدْرَانِ الْبُيُوتِ وَفُرُوعِ الشَّجَرِ وَمِظَلَّاتِ النَّخِيلِ الَّتِي يَتَدَلَّى مِنْهَا الثَّمَرُ الَّذِي تَفْخَمُ فِي سِبَاطَتِهِ، وَشَاهَدُوا بِأَعْيُنِهِمْ هَيْجَانَ السَّدِيمِ فِي الْأَفْقِ.

كَانَ الضُّوءُ يَهِيْطُ مِتْرَاصِقًا فِي بَهْرَجَةٍ بِأَحْشَاءِ مَعْبَدِ «الْكِرْنَكِ»، عِنْدَ الْبَحِيرَةِ الْمُقَدَّسَةِ، كَأَحْجَارٍ بِرَاقَةٍ، وَمِنْ زَوَايَا الْبَحِيرَةِ الْأَرْبَعِ، تَدْفُقُ عُمُودٌ إِلَى الْأَعْلَى، عُمُودٌ مِّنْ مَّاءٍ، انْدَفَعَ يَتَرَاقِصُ، كَأَن نَغْمًا خَفِيًّا يَحْكُمُ مَسَارَهُ، وَكَانُوا قَدْ اعْتَقَدُوا، قَدِيمًا، أَنَّ مَنْسُوبَ الْبَحِيرَةِ كُتِبَتْ، لَا يَرْتَفِعُ وَلَا يَنْزِلُ، كَأَنَّ سَكَّانَ الْمَعْبَدِ الْقُدَامِيِّ حَصَّنُوهُ بِالتَّمَانِمِ السَّرِيَةِ وَحَوْطُوهُ بِالتَّعَاوِيْذِ وَالطَّلَاسِمِ، عَلَى أَنَّ أَعْيُنَهُمْ صَعِدَتْ مَعَ الْعُمُودِ الَّذِي انْفَجَرَ مِنْطَلِقًا إِلَى حَوَافِّ السَّمَاءِ فَجَاوَزَهَا، غَابَتْ حَوَاسُّهُمْ وَتَسَمَّرُوا يَشْهَدُونَ الْأَسْطُورَةَ، تَلَجَّمُوا جَمِيعًا، كَأَنَّمَا يَنْتَظِرُونَ نَهَايَةَ تِلْكَ الْأَحْدَاثِ الَّتِي لَمْ تَمَرَّ بِهَا مَدِينَتُهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ.

الْعُمُودُ يَشْفِطُ مَاءَ الْبَحِيرَةِ وَيَسْبِغُ بِهِ إِلَى هُنَاكَ، إِلَى حَيْثُ لَا يَبْلُغُ بَصَرُ، تَعُومُ فِيهِ وَمِضَاتٌ مُتَالِفَةٌ، كَأَنَّهُا أَسْمَاكٌ نُورَانِيَّةٌ، يَتَنَاقِشُ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الرِّذَاذُ، يُنْعِشُ وَعِيَهُمْ، تَقْشَعِرُ أَطْرَافُهُمْ، فَتَبْدَأُ أَلْسِنَتُهُمْ تَرِطُنَ، تَتَسَاءَلُ، يَحَاوِلُونَ فَهْمَ الْمَسْأَلَةِ بِالْفِرَاسَةِ وَالتَّكْهَنِ وَالظَّنُونِ، عِنْدَ

أَنْ رَاحَ مَشَايِخُهُمْ يَبْسُمُونَ وَيَسْتَعِيدُونَ بِاللَّهِ.

يَتَجَلَّى فِي مُنْتَصَفِ لَيْلِهِمْ نُورٌ، يَكْشِفُ لِأَبْصَارِهِمُ  
الْوَقَائِعَ الْمَكْتُوبَ لَهُمْ أَنْ يَشْهَدُونَهَا وَإِنْ أَنْكَرُوهَا قَدِيمًا،  
كَانُوا وَاقِفِينَ مُتَفَرِّقِينَ عَلَى جَانِبِي طَرِيقِ الْكِبَاشِ، عِنْدَمَا  
شَرَعَتْ الْكِبَاشُ فِي التَّحَرُّكِ، رَاحَتْ تَنْفِصِلُ عَنْ قَوَاعِدِهَا،  
تَشَبَّ، تَنْفُضُ عَنْهَا غُبَارَ الْأَزْمَنِ طِيلَةَ الرَّقُودِ فِي الْهَيْئَاتِ  
الْحَجَرِيَّةِ، تَخْطُو بِبِطْءٍ، تَزَلْزَلُ خَطَوَاتُهَا الْأَرْضَ تَحْتَ  
أَقْدَامِهِمْ، تَسْتَدِيرُ مُتَّجِهَةً إِلَى قَلْبِ الْمَعْبِدِ، قَطْعَانٍ مِنْ  
الْكِبَاشِ تَصِفُّ بَعْضُهَا بَعْضًا وَتَتَقَدَّمُ فِي طَوَابِيرٍ مُنْتَظِمَةٍ،  
وَكُلَّمَا انْسَلَخَتْ عَنْ هَيْئَاتِهَا الْقَدِيمَةِ اكْتَسَتْ بِالْفِرْوِ  
الذَّاكِنِ، وَهِيَ تَدْخُلُ إِلَى الْمَعْبِدِ.

يَتَبَدَّلُ لَوْنُ التُّرَابِ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، يَصْبَحُ عَلَى لَوْنِ  
النَّيْلِ، أَرْزَقَ، مَرْتَقًا بِبِقَعِ الدَّمِ، تَغْطِسُ أَقْدَامُهُمْ فِي بَرَكِ  
الدَّمَاءِ، ثُمَّ يَتَقَهَّقُونَ إِلَى حَيْثُ حَيَزَ الْجِدْرَانِ، يُوغِلُونَ فِي  
هَلِيعِهِمْ، لَكِنَّ الْجِدْرَانَ نَفْسَهَا أَزْرَقَتْ، وَأَوْصَدَتْ أَبْوَابَ  
بَيوتِهِمْ فَاحْتُجِزُوا فِي الْخَارِجِ، قُضِبَتْ بِأَسِيَجَةٍ كَهْرَبَائِيَّةٍ،  
كَأَنَّمَا مُسْتَمَدَّةٌ مِنَ الصَّاعِقَةِ الَّتِي تَزُومُ أَعْلَاهُمْ، كَأَنَّ  
قُدْرَ لَهُمْ أَلَّا يَهْرَبُوا مِنْ مَعَايِنَةِ الْأَسْطُورَةِ، قَسْرًا، وَإِنْ  
ارْتَعَبُوا، أَوْ طَمَحُوا أَنْ يَصْبَحَ كُلُّ هَذَا مُجَرَّدَ حُلْمٍ، لَكِنَّهُمْ  
سَيَبْقُونَ خَارِجَ بَيوتِهِمْ حَتَّى مَشِيئَةُ مُلْتَبِسٍ عَلَيْهَا.

الْكِبَاشُ تَتَمَشَّى عَلَى مَهْلٍ فِي صَفَيْنِ مُتَوَازِيَيْنِ، وَمِنْ

مولها تُسْتَنْطِق جدران المعبد، تَلْفَظ نقوشها، تتجسّد  
النقوش، حيوانات وَخَدَم وَحَرَّاس وكائنات هجينة  
برؤوس طيور وأجسام بشري، على شكل الأطياف  
الدّخانيّة، وعند بهو الأعمدة تَطُق النار، تقفز الرّسوم  
مشتعلة ترافق الرّكب الأثري، يستقرون جميعهم حول  
البحيرة، يركعون في دائرة يتحلّقون عمود الماء الذي  
يهطل إلى أعلى.

يسمعون الأصوات، أصوات ترانيم وغناء، على دقّ  
الدّفوف وقرع الطّبول، كانت تصدر مِنْ داخل المعبد،  
المنهم لا يعرفون موقعها بالضبط، رنينها في آذانهم  
بدوي، صاخبًا، يصدّون آذانهم وترجف أبدانهم، تسري  
فيها رعدات متتالية، لا يسيطرون عليها، كأنما شيء لهم  
أن يرقصوا على نغم الأصوات، بلا إرادة، دونما حيلة،  
وفي أنوفهم تسكن روائح بخور، لم يشمّوها مِنْ قبل، ولم  
تعرف إليها الحواس، بل استنشقوها فداخت أدمغتهم.

السّماء يُبْطِط طرفاها وينبعجان، تبدو تقوّست،  
يلتف طرفاها إلى أسفل ويُربطان في بعضهما البعض،  
تضفر الطرفان، ينعقدان، فتبدو الأرض تكوّرت بهم،  
رخوة تحت أقدامهم، فتساقطوا فوق بعضهم، محمولين  
داخل أسطوانة مستديرة، أظلم على أبصارهم داخل  
الدائرة، ما عادوا يرون أنفسهم، كلّ ما يُسمَع الآن  
شهقات النساء، وتضرع الرجال، والضراخ، والنواح.



مِنْ صدر العمودِ، مِنْ جوفِ المعبدِ، تَنَزُّ شراراتُ،  
ينفجر العمود عَنْ مركبٍ ذهبيّةٍ تخرج والماء يتقاطر  
مِنْ مجاديفها، يقف فوقها عملاقٌ مفتول العضل، بصره  
مستقيم، لا تتحرك عيناه لا يسارًا ولا يمينًا، في يده حِزْمَةٌ  
ضوؤها ينقطع، بدتْ تخبو، وعلى رأسه تاجٌ بشكلِ  
صولجان، له جناحان مضمومان إلى ظهره، بينما جسمه  
يتألق بلونِ الذهب، تبرز به المركب مِنْ قلبِ العمود  
فيتمتع الكباش والحراس والخدم، تسبح حولهم الرموز  
التي كانت فوق الجدران، تسبح متلألئة، تعوم المركب  
في الهواء، محمولةً على ضبابٍ وسحبٍ.

يمدّ العملاق ذراعيه جانبًا، وَمِنْ حوافِ الأفق تطير  
أسراب ذبابٍ ونحلٍ وفرشاتٍ، تلتفّ حول ذراعيه في  
مساراتٍ دائريّةٍ، تطنّ، تتحرك الحشرات وفقما يحرك  
ذراعيه، وَمَعَ حركتهما، تنحدر الصّاعقةُ مِنَ السّماءِ،  
تنحدر في جديلةٍ ضوئيةٍ، تقعقع، يلقيها في قبضةِ يده،  
تمتزج بالحِزْمَةِ التي تُمسكها، يفتح صدره، كان صدره  
أجوف، يضع الصّاعقة بداخلِ صدره، مكان القلب،  
يتشكّل قلبه مِنْ جديدٍ، يتشكّل مِنْ ضوءٍ وبرقٍ،  
يتوهج، ينبض بالطّاقة، وفيما ينبض قلبه، تُكتسب  
ملامحه بالحياة، فيمتشق نفسه فاردًا جسمه، كأنه  
يزهو بما استعاد.

طرفا السّماء الملفوفان تحت الأقدام ينفرطان،

فيمكن لهم، وقد شَعَّ الضَّوءُ عَلَى أَعْيُنِهِمْ ثَانِيَةً، أَنْ  
يَتَّبِعُوا الْمَرْكَبَ، وَهِيَ تَطُوفُ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ، تَسْبِيحُ بِلَا  
مَاءٍ، طَوَّلَهَا كَشَعَاعُ هَارِبٍ مِنَ السَّمَاءِ، وَعَرَضَهَا بَعْرِضِ  
مَدِينَتِهِمْ.

المركب تجتاز النهر، تبدو أمامهم، وهي تسبح هائمةً  
مُتَّجِهَةً إِلَى الْبُورَةِ الْمَفْتُوحَةِ فِي السَّمَاءِ بِالضُّقَّةِ الْغَرْبِيَّةِ،  
طَائِرٍ عِنَقَاءٍ مَجْنَحٍ يَعُومُ فِي الْفَضَاءِ، تَقْطَعُ الشَّوَارِعَ،  
الطَّرِيقَ بَيْنَ الْبُيُوتِ، وَقُرْبَ الْجِبَلِ الرَّابِضِ عِنْدَ وَادِي  
الْمُتَوَاتِي فِي الْبَرِّ الْغَرْبِيِّ، تَنْفُتِحُ بَوَابَهُ، فِيمَا بَيْنَ التَّمَثَالِينَ  
الْمَجْرِيَيْنِ، الَّذِينَ أَفْسَحَا لَهَا طَرِيقَ الْعُبُورِ.

المركبُ تدلف إِلَى دَاخِلِ الْبَوَابَةِ، تَنْغَلِقُ عَلَيْهَا، ثُمَّ  
يَسْكُنُ كُلُّ شَيْءٍ عَلَى الصَّفَافِ، بِغِيَابِ الْمَرْكَبِ دَاخِلِ  
الْبَوَابَةِ، مُجَدِّدًا.

يزول أَثَرُ الْأَسْطُورَةِ مِنْ وَاقِعِهِمْ، بَلْ بَدَأَ أَثَرًا عَارِضًا  
الْمُتَنَانِيَّ الْحَدُوثِ، إِنَّمَا لَا يَنْسَوْنَهُ، أَجَلَ تَعُودِ الْأَشْيَاءِ إِلَى  
مَوَاقِعِهَا الْأُولَى، لَكِنَّ الْأَثَرَ لَا يُفَارِقُ حِكَايَاتِهِمْ.

ومهما أَقْسَمَ آبَاؤُهُمْ، إِذَا جَرَى الزَّمَنُ، لَنْ يَصْدَقَ  
الْوَعْدَانِ، فِيمَا يَتَّبَعُ مِنْ أَجْيَالٍ، حَتَّى يَشْهَدُوا بِأَعْيُنِهِمْ  
أَنَّ طَوْرَةَ أُخْرَى مُمَاطِلَةٌ، مُتَجَسِّدَةٌ، حَاضِرَةٌ، بِحُضُورِ  
الْإِدْرَاكِ.

(١)

مُقْتَطَعٌ مِنْ خِرَافَةٍ عَتِيقَةٍ

السُّكُونُ كِسْوَةُ الشَّوَارِعِ فِي مِثْلِ هَذَا الطَّقْسِ، فِيمَا  
بِتَضَوُّعِ النَّخْلِ، الْمِتْرَامِي فِي جِبَابِ الْحَقُولِ الْمِتَطَرِّفَةِ، كَأَنَّ  
الرَّيْحَ تُفَاجِشُهُ عَلَى خُلُوعِهِ.

تَلْتَجِئُ الْكِلَابُ وَالْقِطَطُ وَالتَّعَالِبُ، وَكُلُّ حَيَوَانٍ شَرَدَ،  
إِلَى أَطْلَالِ الْجُدُرَانِ الْمُتَهَدِّمَةِ، خَشْيَةَ الرَّيْحِ، عَدَا رَجُلٍ  
وَأَمْرَأَةٍ يَرْتَقِيَانِ تَبَةً رَمْلِيَّةً، تَتَجَمَّدُ أَنْفَاسُهُمَا بِخَارًا،  
لَا هُمَا مِنْكُمْشُ بِبِطَانَةِ حُضْنِ الْآخَرِ، يَتَسَنَّدَانِ أَحَدُهُمَا  
إِلَى الْآخَرِ، يَصْعَدَانِ بِحَذَرٍ، تَتَوَاتَبُ مِنْ تَحْتِهِمَا ذَرَاتُ  
الرَّمْلِ النَّاعِمَةِ مَعَ كُلِّ خُطْوَةٍ.

تفرّعات الذروب من حولهما كلّها تنتهي إلى آماذ  
ظلاميّة تسوّر معاصم المدينة، فوق رأسيهما إضاءة  
شحيحة منبعثة من عمود هزيل.

تبدو انعكاسات الأشجار والتلال والبيوت على أسطح  
الطرق - الشبيهة بالمرايا - كظلال من دخان.

قد هاجت الريح، على غير هوادة، واستأسد الضيق،  
وما أعد أهل المدينة أنفسهم، حسبتهم يهزؤون كلّما  
ذكر الشتاء: نحن قرناء الشمس، وشتاؤنا عذابنا نعم،  
لكن الشتاء نادر، ولا يبقى.

تغفو الشوارع، لا بشر في محيط وديان مدينة  
«القرنة».

يُعرّف الاختباء؛ في مثل هذه الأوقات الباردة  
الاستثنائية من زمن المدينة، إذا أقبل الشتاء عفيًا،  
كلّذة مُستباحة.

يستحسنونه - الاختباء - كفعل آمن، يسلسلون حياتهم  
في البيوت، فيما يتركون - طوعًا - أشغالهم وأرزاقهم في  
الخارج، كأن المساء، في شتاء المدينة، للموتى، يمارسونه  
كيف شاءوا.

يتركون اللصوص، والمردة المرصودين لحراسة الأثر،

والأشباح وعشائر الجن، على تنوعها، يعيشون في الخلاء هناك.

يوقدون أفئدة بيوتهم، بل يتحلّقون النار سمراً،  
يلمثنون أنهم منعزلون عما يدور خارج ديارهم،  
يستأنسون بالحكايات والنمائم والإشاعات، كأنهم  
يسهرون يستدفئون بأسرار البيوت.

تبدو أعمدة معبد «هابو» - في ظل صهيل الريح  
القادمة تزعق من خلف الجبل - فيما لا يكاد البصر  
يسل إليها على تمامه، تحديداً في مثل هذا الأوان،  
«الشتاء يُثقل الهواء، الذي يتحرك باتجاهيه، من وإلى  
المدور؛ كرووس معقوفة بالضباب».

عند أن تتكلس الريح فوق الوجوه، الأهداب، على  
«سخر الجبل، وحول أعناق المآذن والكنائس، والأبنية  
«المعابد، القصية والدانية، يُصبح السحاب حينئذ أوشحة  
«طنية، فرّوا يكتف حواف الأنظار، يصبح المشهد أبيض،  
«الزفير دُخاناً يترام في تكاسل، فلا يجرو نَفراً أن يغامر  
ويهبط من دفء البيت إلى قرص الشوارع.

إلا رجل وامرأته، أبعد ما ابتغث أن تُنجب ولداً،  
«بعد سنوات من حصار العقم، وقد أوشكت أن تفقد  
الأمل، ولم تكن تحتسب كرمًا، أو يمن عليها القدر بوليد،  
ولما كاد رحمها ينقطع عطاؤه، استجاب الله رجاءها،

لذا؛ كان لزامًا أن توفي نذرَها الذي قطعته على نفسها، وعاهدتْ به «الطَّوَّاف» الكبير؛ الجدّ.

كان يُمكن أن تنتظر لطلوع الشَّمس، لولا إحساسها الملخّ بثمة ما يُحدِّقُ بابنها، في هذه اللحظة، تحديدًا، حيث وجدتْ اللَّبن يُغرق صدرَها.

قامتْ مِنْ على السَّرير، بهاجسٍ بدا فجائيًا، كملسوعة، كمخبولة، مضتْ تمسح بكفِّها اللَّبن، وهي تقلِّب في رضيعِها مخضوضَةً، وإنْ حدَّرها زوْجُها:

- فلثْمِهي نفسَكِ حتَّى يتمَّ شفاؤك!

- إنَّه نذرٌ للتَّحصين والبركة، جسم ولدك زكّ، واشتدَّ سعالُه، انظر إلى وجهه المحمَّر! عسَّس حرارته! معدته تلفظ اللَّبن!

وراحتْ تقلِّب في وليدها بلوعة.

- الحصانةُ بأمرِ الله!

- والنَّذرُ لله أيضًا، ألا تذكر كلامَ أبيك؟! قبل أسبوعٍ يمرُّ على ولادته يا رجل تَرْقِيه.

- وهل مرَّ أسبوع؟

حُسم الأمر طالما الولد تقياً الرضعة.

انتظري إذن كي أوقظ أبي ليرافقنا.

جسمُ الولد اشتعل، لن ينتظر.

أردفت ونهضت، تماسك جسدها رغم خطر الحركة،  
أ، انها زوجها محاذراً ولو لم يزل يبرطم في عتاب، لقحها  
الأردية الثقيلة فابتسمت امتنائاً، ثم لقت رضيعها،  
الذي لم يكمل أيامه الثلاثة، في بشكيرين من الصوف.

أصرت على النزول إلى المعبد، ولو أن الدنيا في الخارج  
... اكنت، هذا السكون الكامل كأن العالم لن يتحرك بعده،  
رسمي زوجها على كتفيه عباءته وهبط معها مجبوراً.

أخشى على الولد في مثل هذا البرد!

دعها على الله.

أما كان لك أن تصبري لحلول الغد، النهار له عيون!

نفس الولد ضاق، أخاف عليه.

أخاف عليه أكثر منك، لكن كل شيء بالعقل، الجو  
مرد يا امرأة!



لم تردّ، فتحت باب البيت، واستقبلت الهواء على صدرها، فارتعدت، ضمها زوجها وهو يحكم شدّ الرداء:

- احترسي طيب.

عبر هذا السكون، بينما تصطك أسنانهما، دون إرادة، كان الولد قد راح يسرع صراخًا، ألقمته ثديها تهدئه، وأسدت الحبرة على صدرها، وضمته تدفئه.

صعدا المنحدر الرُملي، بدا الجبل هاجعًا أمامهما، كان هزيمُ الرّيح يدوي من خلف الجبل، ومن بين أعواد الغاب بالنّاحية الأخرى من الطريقِ ظهرت العِشة، لم يكن بين بيتيها والعِشة المحاذية للمعبد أكثر من مسافةٍ شارعين يقطعانها بالعَرَض.

قالت في نفسها أحتمل البرد ولا أحتمل الخطر على ولدي.

الرّيح تمرح بين ثقوب جدرانِ مخازنِ غلال سيّدنا «يوسف»، قباب المخازن متقشرة، كأنّها صلعاء، عندما مرّا من أمامها اقشعرَ بدنها، أحسّت أنّ حراس الخزائن ما زالوا يُباشرون عملهم في إحصاء الوارد والصادر من الغلال، وأنّ المخازن مقفلة عليهم، منذ آلاف السنين، تركوا للحراسة، لا يراهم الناس وإن شعروا بهم.

أصدر جسدها هزةً فجائيةً، تطرّف بها زوجها بعيداً  
 ، من أفواه المخازن المستديرة، وهو يدفن رأسها في صدره،  
 ، يُسدّل عليها عمامته الثقيلة، بينما كانت عيناه تراقبان  
 الفوهات المعتمدة، أحسن هو الآخر أن أناساً يتحركون في  
 الداخل، أن جميع الأشغال التي ذكرها التاريخ لم تزل  
 ساريةً، تسارعن خطواته، يضعض، يتمتم بشفتيه يقرأ  
 القرآن، ويدهس بقدميه الروث والحشائش والتراب  
 المتراكم على جنب الطريق وهو يعبر سريعاً بوازع  
 الارتباب.

دلفاً مع المنعطف المستدير باستدارة ضفة التّرعّة،  
 رأس ورل تبرز من الحشائش، يتفقدّهما بعينيه كأنه  
 يستنكر خبيلهما الذي دفعهما للخروج في هذا التوقيت،  
 ثم سرعان ما يلوذ بلجة الحشائش لا يُبالي بغير الدّفء.

مرّاً على بضعة بيوت غطّوا نوافذها بورق الجرائد  
 «البطاطين تحسباً من تسرب نفخات الريح الباردة،  
 » كانت بيوتاً اشتغل أصحابها في صناعة «الألباستر»،  
 ، بدت تُشبه البيوت الأثرية الواطنة في عموم بنائها،  
 ، ركوا الأدوات وأكوام الجير وكُتِل الصّجارة والتمائيل  
 ، غير المكتملة ملقاةً أمام أفواه الأبواب، كانت حيطان  
 البيوت ملطخةً بالرّسوم المصرية القديمة المقلّدة التي  
 اهتمت ألوانها، وكان التقليد فقيراً مليئاً بالعيوب وعدم  
 التّناسق.

يزعمون أن قدماء المصريين صوّروا بالنقوش على جدران معابدهم ما عجزت ألسنتهم عن وصفه من أسرار الروح، تُرى أي أسرار يُمكن أن تحملها روح ولدها فيما بعد؟

بلهفةٍ طرقت العشة، اهتزت لمبة الجاز المعلقة على الباب، نفخت في صدر ابنها زفيرًا ساخنًا وهي تدعك صدره، لم يطل انتظارهما، أزاحت الباب يد مرتعشة، بعدها طل وجه امرأة عجوز، عقدت حاجبيها، ركزت بعينيها فيهما مستعلمة، ثم انبسط وجهها لما تعرفت عليهما، فتحت الباب لآخره، وقالت:

- تفضلا، يا هلا يا هلا..

دخلا، أسرع العجوز تُغلق الباب بعدهما، جلسا حول ركية نار، سرى الدفء في جسديهما، تناولت العجوز حطبًا من كوة في الجدار وزغت به النار، استوقدت أكثر، رفعت حافة البشكير عن وجه الولد:

- ما شاء الله، محروس بأمرة.

قالت الأم متعجلة وهي تفرك بكفها جسم الولد:

- أسرع وحصتيه يا شيخه «ضي».

هدي من روعك.

يكاد الولد يفرط من السخونة!

للقفته من يدها، كشفت بطنه، غمست في سرته  
اسمها، فرج الولد فمه يضحك، ظلت تلاطفه، جاس  
فيه فيها على غير ثبات.

أراحتة على الكنية، تعكزت على عصا ودخلت إلى  
من العشة، خرجت بغد قليل وفي يدها قماش وإبرة  
روس من طين وإناء فخاري وهي تبسمل، نظرت  
إليهما تقول محذرة:

هذا الإناء فيه خليط من المسك والزعفران وماء  
ورد ولبان الذكر، قد تضايكما رائحته.

حطت الولد على فخذها بغدما جلست جواره،  
الطقت في فمه شراباً من زجاجة أولاً ونظرت إليهما:  
إنه حلف بز دافن كي يعقر معدته.

هزئت أمه رأسها تدعوها للإسراع واستكمال طقسها،  
أراحت تنلوا:

يا قديم يا دائم يا أحد يا صمد.

ثم أمسكت العروس، مسح عليها بأناملها، تعفرت،  
كح الولد، وثبت الأم، لكن الأب أجلسها ثانية براحتيه  
يطمئنها.

بأسنانها المتهالكة مضت العجوز تقطع القماش،  
صار فتائل، فتحت حشية الكنية، تناولت رقعة جلد  
ماعز، ثم بالخيط والإبرة راحت تثقب الرقعة، غمس  
الإبرة في الخليط، ثم كتبت على الرقعة «بسم الله»  
خمس وثلاثين مرة، طبقت الرقعة مع الفتائل، وظلت  
تحيكهم، ضفرتهم طوليًا، أمسكت الضفيرة وعقدت  
طرفيها، صنعت قرطاً مجدولاً، ثم قامت إلى النار،  
طمست فيها الإبرة، وتركتها حتى وجت حمرة لحد  
اللمعان، تناولتها بيدها، من النار، دون أن تكتوي  
أو يحترق جلد يدها، تعودا على بركة العجوز، فلم  
يندهشا مما أتت.

غزت الإبرة في أرنبة أذن الولد، لم يتألم، بل طاف  
فيها بعينه كأنه يستفهم، ثم رفس بساقيه، ورفع  
كفه إلى وجهها يناغيها.

ابيضت عيناها وهي تقرأ على رأس الولد، وتخشب يدها.

رثلت أسماء الله مرة واثنين، وضغمت اسمًا وأكثر  
إذ ترتل، ثم رفعت الولد فيما فوق رأسها، وهممت:

بسم الله، على جبهة «آدم» قبل أن يُخلق  
بسمائة عام .

سارج العِشَّة، ومن وسط شروخ الجبل الذي يطل من  
أ: القائم منفردًا - في تسلط - باحتضان حدود المدينة،  
ن عند آخر خط للرؤية قد ترسو عليه أبصار الناس  
الاجزء عن الاستشراق، ومن حيث لا تصل قدم، كانت  
الامت الریح، يتكثف هواؤها، يسطو على أسطح  
ال. وت يهيج ترابها، يغير فضاء الشوارع، تشتد الریح  
أ: وتجيء محتدمة قادمة من ناحية السماء الضبابية  
ال. تلثم وجه الجبل، فيبدو سيختنق.

تذكرت الأم كلام الجد «طواف» مع كل اشتداد للريح:  
أ: الریح تسوي ندوب النفوس التي زين لها الكبر  
والشدد، ضعفاء نحن أمام جبروت الطبيعة.

كان الجد فيلسوفًا، حتى في أبسط الأمور تتعلم منه  
على يديه، لولاه ما كانت وافقت على الزواج من  
الله الذي يكبرها بعشرين عامًا، وإن طابث لها عشرته  
ما بعد.

تطوف العجوز بالولد في اتجاه عقارب الساعة:

بسم الله، على جناح «جبريل» يوم هبط على  
«إبراهيم»، على عصا «موسى» عندما انقلب البحر، على

خاتم «سليمان»، وفي أذن «عيسى»، وثوب «محمد».

الحطبُ يشخِشُ في جوفِ الرِّكيّةِ، والريحُ من الخارجِ  
تخيّطُ البابَ، تكادُ تنتشله، واللّمْبةُ الجازُ تراقصُ،  
والولدُ يكركر، تنحني إلى أذنه تهمس، ثمّ تعود إلى  
الوراء، فيكركر أكثر، وكانت قد استغرقت في طقسِ  
التّلاوة، ولما استكانت أنفاسُها استدارت إليهما، قالت:

ما اسم الولد؟!

- على اسم جدّه.

ردّت الأم وهي تتحسّس أنفها مشمّزةً من الرائحةِ  
العطينةِ الثّقيلةِ التي فاحت، لم تعلق العجوزُ، وإن مصمّصت  
شفتيها، قرّبت القِرط من أذن الولدِ، على رفيق شبّكته في  
الخُرْم، وأوثقت عقدته بالأذن، وهي تربّت عليه.

أحسّت الأم بالارتياح، أمسكت منها ولدها ووضعتَه  
بجانِبها، ورحرحت أخيراً، انهمكا في سردِ بعضِ الوقائعِ  
المباركةِ عن الجدّ، وكيف أنّ التيمّن باسمه سيُجلب  
الخير للولدِ.

الولدُ بيده يعبث بشقّ في الجدارِ، يستخرج قشّاً،  
كانوا استرسلوا في نقاشهم، ولم ينتبهوا لحركة أصابعه  
الرّقيقةِ على جصّ الجدارِ، وكأنّ سحرًا غفلهم عنه.

فَرَبَّ الْوَلَدُ رَأْسَهُ، حَدَّ أَنْ كَادَ يَلْتَصِقُ فَمُّهُ بِالْجِدَارِ،  
 مِنْ الشَّقِّ أَخْرَجَتْ حَيَّةً خَضِرَاءَ رَأْسَهَا، خَضِرَاءَ بِلَوْنِ  
 مَقُولِ النَّعْنَاعِ، كَانَتْ حَيَّةً صَغِيرَةً لَا تَكَادُ تُرَى، وَلَا  
 تَسْدُرُ مِنْهَا فَحِيحٌ.

جَوَذِبَتْ رَأْسُ الْحَيَّةِ مَعَ رَأْسِ الْوَلَدِ، ثُمَّ بَلَسَانِهَا  
 اسْلَلَتْ إِلَى فَمِهِ، بِرَأْسِهَا، قَطَرَتْ سَائِلًا كَالْحَلِيبِ، لَعَقَ  
 الْوَلَدُ، قَطَرَتْ الْحَيَّةُ ثَانِيَةً كَأَنَّمَا تُرْضِعُهُ، تُشْبِعُ جَوْعَهُ،  
 وَمَا رَفَعَتْهُ الْأُمُّ لِلْمَغَادِرَةِ، وَنَفَضَتْ الْقَشَّ الَّذِي يَضُمُّهُ  
 فِي كَفِّهِ مَتَعَجِّبَةً، ثُمَّ مَسَحَتْ بِإَصْبَعِهَا بَقَايَا لَبَنِ ظَنَّتْهُ  
 أَبْقَاهُ فِي فَمِهِ عَقِبَ رُضْعَةٍ مُتَقَيَّأَةٍ، كَانَتْ الْحَيَّةُ قَدْ  
 اخْتَفَتْ دَاخِلَ الشَّقِّ، وَأَقْفَلَ مِنْ بَعْدِهَا.



## حسيب الجبل

يُرَوَّى؛ والعهدُ على رواة مدينتنا، هؤلاء ممَّن عاصروا الحادثة قديمًا، فحفظها أبناؤهم من على ألسنتهم، وتناقلوها، أو النسوة اللواتي شطَّت بهنَّ السنَّ، وصارت تجاويف أفواههنَّ خاليةً طريَّةً كقشر البرتقال العَطن، أسنةً كماءٍ راكِدٍ، لكنهنَّ عمَرن، يروى أنَّ الشيخ «حسيب الجبل» لم يولد كسائر العيال، بل عندما سقط من رحم أمه، تدلى يتأرجح في حبلٍ مجدولٍ من لبلابٍ وزهرٍ أخضر، وكانت أمه وقتذاك في الجبل ترعى غنمًا.

طَفَّت الشَّمْسُ فِي كَبَدِ السَّمَاءِ، وَشَعَرَتْ أُمُّهُ بِالْأَلَمِ،  
 وَفَعَتْ عَلَى بَطْنِهَا تَصْرُخَ، لَمْ صَرَخُهَا نِسْوَةٌ أُخْرِيَّاتٍ كُنَّ  
 رَعِيْنَ، وَأَمَامَهُنَّ رَكَعَتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا، أَفْرَغَتْ سَوَائِلَهَا،  
 اسْتَنْدَتْ عَلَيْهِنَّ، بَصَقَتْ، اِزْرَقَ وَجْهَهَا، فَرَدْنَ ذِرَاعِيَهَا،  
 وَسَدْنَ رَأْسَهَا، وَقَبْلَ أَنْ تَفْرُطَ ظَهْرَهَا، مِنْ بَيْنِ وَرْكَيْهَا  
 فَهَزَّ، حَاوَلَتْ إِحْدَاهُنَّ أَنْ تَتَلَقَّفَهُ، لَكِنْ هَيَّوْطَهُ كَانَ أَسْرَعَ  
 مِنْ اسْتِجَابَتِهَا لِقَفْزَتِهِ، وَلَمَّا قَفَزَ، قَفَزَ بِرَأْسِهِ، فَخَبِطَ فِي  
 سَجَرٍ، شَهَقَتْ وَاحِدَةٌ، غَيْرَ أَنَّ الرِّضِيعَ لَمْ يُخَذَّشْ حَتَّى،  
 فَسَعَتْ أُمُّهُ تَفْخَصُهُ وَهِيَ تَشْدُو مِنْ حَيْلِهِ الْعَجِيبِ،  
 إِنَّ وَجْهَهَا غَارَقًا فِي الْعَرَقِ، إِنَّمَا بَاسَتْ جَبِينَهُ، التَّقَّتْ  
 سَوَالِهَا النَّسْوَةَ، شَهِدْنَ وَجْهًا كَوُجُوهِ الرِّجَالِ الْبَالِغِينَ،  
 لَمْ شَارِبَ نَابِتٍ وَلَحِيَّةٍ خَفِيفَةٍ، أَرَعِبْنَ وَجْهَهُ، بِسَمَلْنِ،  
 سَاحَتِ امْرَأَةٌ:

- جَنَّ! خَلَفَتْ جَنًّا يَا وَلِيَّةُ؟!

فَقَالُوا، مَنْ بَعْدَ، أَرَادَهُ اللَّهُ وَلِيًّا، لَا يُلِدُ الْبَشَرُ جَنًّا،  
 وَمَا يَسْتَحِيلُ حَدُوثُهُ لَا يَجُوزُ افْتِرَاضُهُ.

قَطَعْنَ حَبْلَهُ اللَّبْلَابِي الْمُزْهِرَ بِسَكِّينَ سَخَنَهُ لِحْدَ الْإِحْمَارِ،  
 وَلَمْ يَكُنْ دَمٌ، بَلْ كَانَ سَائِلٌ كَالْعَسَلِ فِي مَلْمِسِهِ، كَالرَّيْحَانِ  
 فِي رَائِحَتِهِ، لَفَنَّهُ فِي فُرُوعِ خُرُوفٍ، وَظَلَّ يَرْفَسُ بِقَدَمَيْهِ،  
 انْظُرْ إِلَيْهِنَّ وَاحِدَةً وَاحِدَةً، تَخَوَّفْنَ مِنْهُ، بَدَأَ يَكْشِفُ سِتْرَ  
 الْهُوسَنِ، يَسْتَبْطِنُهُنَّ، وَهُوَ ابْنٌ دَقَائِقٍ فِي الْحَيَاةِ.

فجاءَ أزهر قطيعُ الخرفانِ، فروهُ كلَّ خروفيٍّ كانت  
تنفّسُ، وحاوَطوا الرّضيخَ، وتَغَوّوا، وابتلعتْ بطونُها  
سيقانَها، فراحوا يزحفون زحفًا، كأنّما يتدحرجون مِن  
حوله، ككراتٍ مِن قطنٍ.

النّسوةُ صرخن، نزلن يهرولن إلى شوارع المدينة،  
تركنه وأمه وليكن معهما الله، بدوّن واثقات لئن هذا  
مِن عَمَلِ الجنِّ قطعًا.

أقاموا له المجالس في المدينة، وسرت الحكايات،  
بين إنكارٍ، وتسبيحٍ، ووجوب شكر الله على إعجازه،  
وتزاوروا ليشهدوا المعجزة، فشهدوها.

أمّا اسمه؛ فكونه محسوبًا على الجبلِ، وحسيّته،  
وإعجازه.

لكنّ الولد لم ينشأ ككلّ الأولاد، أول ما بدأ المشي سار  
وعمره نحو أربعة أشهر، آنذاك كان يحبو أمام بصر  
أمّه، ثمّ قام يمشي، خبطتْ على صدرِها، وكانتْ تعرف  
أنّ مثله يأتي العجائب بسهولةٍ، لكنّها تخشّى عليه  
من الحسدِ، كيف يُمكن أن تحصّنه من أعين النّاس؟!  
استشارتْ شيخًا وليّا، رَفَعَ لها على أثوابه آيات قرآنٍ،  
وقال لها:

- إذا تحمّم فامزجي الماءَ بالتراب، إنّ الترابَ حافظٌ

يا ر الله، ولا بأس أن تشطّفيه بمنقوع الليمون.

ولما حمّته أذابث قليلاً من الثّراب في الماء،  
صرّث الليمون.

ثم أدركت قدماه الجبل بلا دليل ولا دافع، بواعز  
هم، سعد صغيراً، في غفلةٍ عن عين أمّه خرج، رأوه  
الرا نحو بطن الجبل، فقالوا لعلّه مندوّه، وليس غيره  
ده بينهم، إنّما اكتشف مدقّاً طالعاً كان مخفياً بين  
السجّارة والثّراب، طلع وحده، وكانت الشّمس متألّقة  
لى رأسه، لكنّه رجّع والليل انتصف، فبدا لهم رائياً  
كشّف له ما لا يدركونه.

كلّما فقدوه أو تحيّرُوا مكانّه ذهبوا إلى الجبل،  
سترجعونه إنّما يعود، كأنّ هاجساً يجذبه، أو بينهما  
اللة، كأنّ الجبل أبوه، لا تمسه كائناته ولا تفتك به  
نواريه، ثمّ إذا ما بلغ سنواته العشر، أقام له بيتاً  
من خشب، سيطلق عليه - فيما بغد - «المسرى»، حيث  
سرى بالمعذبين إن شقّوا ممّا لا طاقة لهم به، فيكون في  
«المسرى» علاجهم وراحتهم وقضاء حواتجهم الرّوحانيّة.

أقام بيته في المكان الذي سقط فيه ببطن الجبل،  
«سيقولون: كيف تعلّم المشي صغيراً وكيف تعلّم البناء  
كيف أدرك الأشياء في طفولته؟! سيردّون على أنفسهم،  
سيخبطون أكفهم: علّم «آدم» الأسماء واستنطق طفلاً في

المهد، فهل ثمة شيء بعيد على الله؟!

سيتأخى «حسيب الجبل» مع الأسرار هناك، سيعرف  
الخرائط ويفك الرّموز والطلاسم، ولن يغالبه في الجبل  
علم، إلا وأحاط به.

## سام

نُرى؛ أيُّ شَرٍّ يُمكن أن يجعل النَّيلَ، مرَّةً أخرى، مدفناً؟

كم عامًّا مزوا وهو حبيسُ الماء؟

«اتَّبِعْ «رَع»<sup>(١)</sup> تَنَلْ خَبِيثَتَكَ».

في رأسه لا يزال الصَّوتُ يدوي.

كانت لأجدادهم سُلطةً هائلةً على الحروفِ،  
يستخدمون الكلمات بالغازِها، يُدركون كلَّ أسرارِها،

بل ويحتجزون القَوَى الخفيّة بين الطّلاسم والإشارات  
والنّقوش والرّموز.

- «سوف تملك ما بين السّماء والأرض».

يدمدم الصّوت في كلّ خلجات طموحه، ماله يشعر  
أنّه سيستمدّ بعضاً من هذه السّلطة؟! لن يصبح  
حبس الرّموز بغد ذلك، سيتحرّر، سيستطيع أن يقرأ  
جميع الإشارات المُستغلّة.

- «ستبلغ الحكمة والمعرفة».

يقضي نهاره أسير حلمه، يصبو إلى خبيثته شغوفاً،  
يفتنه الخيالُ بها، كأنّ به يتأهّل لأثرها المُقيل عمّا  
قريبٍ لا محالة.

- «ستصل إلى جوهر الفوضى وتلقّن معنى الاستباحة».

يستشعر حلمه، يملأ حواسّه، كأنّ الحلم طوع يديه،  
أو ما بينهما ليس أبعد من مسافة إشراق.

يقف «سام» على ضفّة النّيل، ضفّة الشّوق، يكرّس  
شوقه كلّ صباحٍ، متأهباً بلا كللٍ، يعوم قليلاً، تتقطر  
على جسده العاري أشعة الشّمس، دافئةً، يغتسل بها،  
يُنعش حلمه، يجلس، يداعب الماء بقدميه، يُباشِر هذا

الحلم بغواية لا يداخلها يأس، يؤمن أن مركب الشمس<sup>(٢)</sup> سوف تظهر ذات شروق، يقودها «رع»، وسوف تأتي له، الحلم المبتغى؛ الذي صار قاب سطوعين أو أكثر قليلاً.

إنه يحسّ بالقرب، بالكشف، سوف تتعري خبيثته من ستر الأرض عند أن تلوح المركب المجنحة، ستتجرد من طلسمها، لا بدّ ستظهر، إن النقوش التي ارتسمت على جدران بيته تؤكّد ظهور المركب، إنه وعد حارس الحبيثة، وطالما كشف المارد عن رمز «رع» فستظهر، كما ستفعل.

يتنفس النيل طيور نورس، تبدو ندفاً بيضاء كالقطن، امض على صفحة الماء، يفارق الموج أجانبها في دوائر متعرجة رقيقة، بينما رغوته تطوف متدافعة، تتسابق إلى ضفة النيل، فقاعات بارقة، ثم يبدأ زبد الشفيف في الدوبان مثل رقاقات هائشة، سرعان ما تفرّكها الحشائش الخضراء التي تحرّم الضفة، لحظة أن يلطمها الموج، ويطوق كاجلي «سالم»، فيدغدغ جلده، والمراكب الشراعية والسنايك والزفاسات بموتوراتها التي تجار، ترتج جيئة وذهاباً بين الضفتين؛ الشرقية والغربية.

الضفة الغربية تشغي بالحركة، حناطير ترنّ أحصنتها وحدواتها على إسفلت الشوارع، باعة متفرقون في



الأنحاء، أجانِبُ يستدلّون عن خريطة الصّعودِ إلى وادي الملوك والملكات ومعبدَي «الذّير البحريّ» و «هابو»، بعضُ المرشدين يفاصلون في أجرة التّوصيل، أولادٌ صغارٌ يلاحقون الزّبائن بالعاديّات وأوراق البرديّ في إلحاح، وفيما يحدث كلّ هذا، كان بال «سام» منشغلاً.

ينظر إلى عمدان معبد «الأقصر» السّامقة في سماءِ النّاحية الأخرى، بينما الشّمس من ورائه تُنتزع -في تان- من جسدِ النّهار الذي شرع يذبل.

يطالع بوجهه صفحة الماء، يرى انعكاسه على السّطح الرّقراق، ثمّ للحظة يبدو انعكاسه إمّازحه، يتسم، يلاعب له الوجهُ حاجبيه، يضمّ أهدابه مستغرباً، ثمّ يفتح عينيه ثانيةً، وجهه المرسوم على صفحة المياه يستدير، كأنه يغطس، يتراجع مذهولاً عندما يلمح قفاه منعكساً هناك، لكنّ يدًا تقبّ من بطنِ الماء تقيض على رقبته، كانت يدًا معروقةً بالعُشب الأخضر، أصابعها تلتفّ عليه، تجذبه إلى أسفل، بلا إرادةٍ يفقد توازنه، اليدُ تطمر رأسه في المياه، ينازع، يفرط، يكلّش على اليدِ بذراعيه، يحاول أن يقلعها من رقبته، شيئاً فشيئاً يغيب جسده كلّهُ مشدوداً بقوة اليد، يلتحم وجهه بالوجه المطبوع على الماء، ويجرفه التيار يجري بهما إلى الأعماق، يجذّف، مرّةً بغد مرّةً، يكاد يغطس، غير أنّه، ولمّا ثابر في منازعته، أفلتته اليدُ، برزت رأسه،

١٠ هبَّ الهواءُ بسرعةٍ وعلى حرمانٍ، سبَحَ إلى الضِّفَّةِ،  
١١ عَيناهُ لا تزالانِ تراقبانِ سطحَ الماءِ في هَلَجٍ.

١٢ المرءُ الماءُ مِنْ جَسَدِهِ، ثُمَّ لم يكِدْ يستديرُ منصرفًا،  
١٣ وجدَ المُحيطَ من حوله متَهَرِّجًا، وعلى هِيناتٍ  
١٤ اللامِيةِ، لا شيءَ يعمُرُه غيرَ أطْيافٍ رماديَّةٍ مهلهلةِ،  
١٥ ولا يستقرُّ لها شكلٌ، مثلُ تموجاتٍ دُخانيَّةِ،  
١٦ ولجَّ إلى بُعْدٍ قاتمٍ ضبابيٍّ، هكذا، فجاءَ.

١٧ رأى عبرَ النَّهْرِ ظلامًا، يتسلَّقُ أكتافَ النَّهارِ، فيما  
١٨ منْ تخبُّو نافقَةً، والعامُّ يرقُدُ ساكنًا، بلا ملامحٍ،  
١٩ مِ الحركَةِ.

٢٠ امْ، غُشِيَتْ أعصابُه، طُوقَ بالدَّهْشَةِ على روعٍ، ظلَّ  
٢١ على الضِّفَّةِ شهورًا طويلةً إذا ما صودفَ وظهرت  
٢٢ سركبُ الشَّمْسِ، دوغًا جدوى، لم تظهرِ المركبُ،  
٢٣ لم تتحقَّقِ أمنيته، والآنِ، أهذا ما كان ينتظر؟! أين  
٢٤ المس؟! حتَّى في غيابِها كانتْ تتدلَّقُ منها الألوانُ  
٢٥ الدَّانيةِ مثلَ عرقٍ آخرِ القيظِ، لكنَّها اختفتْ، باختفاءِ  
٢٦ العالمِ الذي يعرفه، باختفاءِ النَّاسِ، والبيوتِ، المعامِ،  
٢٧ الضَّحيجِ، والواقعِ، كأنَّما أدلِفَ به إلى عالمٍ موازٍ، يخلو  
٢٨ إلا منه، وفي المَدَى ستائرُ الظُّلْمَةِ مُنسَدلةٌ على شَطَرِ  
٢٩ الصِّر!

هزَّ رأسَه، نفْضَها مرَّةً واثنَتَينِ، طَرَفَ بعَينَيهِ لحظةً

فلحظة، كانت الضفة الغربية كأنها فناء مبكر قبل  
أوان القيامة التي ذكرتها النصوص المقدسة، ولما استدار  
ثانية نحو الضفة الشرقية كان الفناء أيضًا، لا مراكب ولا  
سنايك ولا رفاسات ولا معبد! كل ما شوهد منذ قليل  
صار بددًا، بدوره!

شعر بالبرد، بعثية تساؤلات، التكهّنات، كأن  
العدم، الّا أرض أو سماء، كروح تسبح في نفق ليلى  
لا نهائي الظلمة، الأشكال من حوله تتوافق، تتمازج،  
تُسبَدل بعضها بعضًا، ثم يتمخض الظلام عن ظلام  
الْعن، تفاصيل العالم الجديد كأنما مرسومة بأقلام الجبر  
والرصاص والكحل!

تُساق قدماه عنوة نحو هذا الفناء، ثمة رمال  
تسحبهما إلى خطو لا إرادي، لماذا تحوّل الطين إلى رمل؟  
لماذا خلا العالم؟ هل للأمر علاقة بانتظاره مركب  
الشمس وحلول «رع» في السماء؟ لم يدرك! بدا له الأمر  
عجائبيًا، كأنه أسطورة تُبعث من قلب خيالاته!

ظلت قدماه تسيران به كأنما على غير هدى، وبدت  
الأرض رخوة، لم يكن في الظلام إلا دُخان، ومخاوف،  
واحتمالات لا حصر لها، كانت قدماه تسيران به كأنه  
محمول على ريح، ولم تعد عيناه تُبصران غير الضباب  
المشوش، وبدا الجبل، و «سام» يُساق إليه، من بعيد،

١٠٠ هـ . تحرك نحوه بنفس السرعة، بل كان الجبل يدنو  
١٠١ هـ . من عند الأفق مثل كائن خرافي مهيب، قد يجثم  
١٠٢ هـ . عما قليل ويتلبسه.

١٠٣ هـ . يرتعش، لا يعرف أول المخاوف ولا آخرها،  
١٠٤ هـ . ي. مخاوفه القديمة من انطفاء العزم والمجادلة؟  
١٠٥ هـ . ي. مخاوفه من صيرورة مركب الشمس وهماً؟ لم يعد  
١٠٦ هـ . رها! هل أضغى حلمه بمركب الشمس إلى زوال؟!

الجبل بأحجاره وصخوره وأسننته وجنوحه يركض  
١٠٧ هـ . . يدفع، بدا يستهدفه كسهم طائش، لا يلوي إلا  
١٠٨ هـ . ل. هلاك، يتسمّر جسده، لا إرادياً كذلك، ثم حاول  
١٠٩ هـ . أن . ينحرّز من سيطرة الغرائبية دون جدوى، ثمة ما  
١١٠ هـ . يحركه وفق إرادة يجهلها، ثمة ما يحركه وما يوقفه،  
١١١ هـ . لا يضبط إيقاع جسده، مثل دمية، وها هو يتحجّر  
١١٢ هـ . في انتظار أن يرشق فيه الجبل، يتحجّر مكرّها، حتى  
١١٣ هـ . انسراج محبوبس لا يخرج!

الأرض رخوة، وأطرافه أيضاً، يداه تتشعبان، رغماً  
١١٤ هـ . . تتمددان إلى الفراغ، شيء يجذبهما بعرض الطريق،  
١١٥ هـ . . تدو مصلوباً في الهواء، ممطوطاً من ناحيتين، لا يقف  
١١٦ هـ . لى ثابت ولا يتحرك إلى معلوم، وإنما المجهول يتحرك  
١١٧ هـ . إليه، المجهول القادم إما من أسطورة قديمة أسقطتها  
١١٨ هـ . الحركة البشري، وإما من رأسه المحتشدة بالأفكار الموهمة!

لا يشعر بالألم رغم تمدّد جسده من جهتين.

لا يشعر بشيء.

هل أصبحت أفكاره كلها مجرد عبث؟!

كيف جاوز الخيال حدًا فاصلاً، ليصبح حقيقة؟!

يَحْسُ كأنه يهوي مِنْ حَالِقٍ، يُسْتَأْنَفُ دوران هذا  
العالم به، لا ثباتٌ لقدميه، يسقط على شبكةٍ من نسيجٍ  
لزوج الملمس، بدتْ كغراءٍ، كخيوطٍ عنكبوتٍ محشوةٍ  
بالرَّيش، التصقّت به، وفيما يسقط، يفتح فكُّ عملاقٍ،  
كأنّ الظلامَ تجسّد، تخرج أنيابٌ، تحاول افتراسه، يجد  
نفسه مُحاطاً بأصواتٍ زمجريةٍ وأزيزٍ، لا معنى لغضّ  
البصرِ عمّا يحدث، كان قد أغلق عينيه، لكنّ حواسّه  
ظلتْ مستعمرةً بالاستشعار، لا معنى أيضاً للمقاومة،  
ففضلاً عن مقاومته العبثية، لم يكن في جسده عضلةٌ  
قويّةٌ، كلّ عضلاته تراخت، كالمستسلمٍ دونها إرادةٍ.

البخارُ مِنْ حوله، همساتٌ تزوم، يستكمل سقوطه،  
تبدو مِنْ تحته الأشجارُ متفحمةً، ولها أسنةٌ، كالزّماحِ،  
في انتظارٍ أن يقع، لتنسرَ جسمه.

فجأةً؛ يعود به الزّمن لحظةً للوراء، ليجد نفسه  
مصلوباً إلى جهتين، والجبلُ يستهدفه!

## الطَّوَّاف

أبَاشِرْ تَأْمَلِي؛ كَالْعَادَةِ، مَعَ كُلِّ غُرُوبِ شَمْسٍ.

بَرْفَرِفْ جَلْبَابِي مَعَ الرِّيحِ، يَكْنَسُ تَرَابَ الْأَرْضِ، يَتَعَفَّرُ  
- لَدْرِي، أَكْحَ، أَغْسِلْ وَجْهِي بِمَاءِ الْقَلَةِ، أَسْتَعِذْ بِاللَّهِ  
- نَ شُرُورِ الْغَيْبَةِ وَالنَّمِيمَةِ.

عَلَى قَاعِدَتَيْنِ مِنْ حَجَرٍ يَسْتَرِيحُ تَمَثَّالًا «مَمْنُون»<sup>(٣)</sup>،  
رَطَّ الْأَرْضُ فِيمَا حَوْلَهُمَا خَضِرَاءُ تَكْسُوهَا أَلْوَانُ الْمَغِيبِ،  
- نَ بَيْنَ شَقُوقِ التَّمَثَّالِينَ تَمَرَّ الرِّيحُ، يَثْنُ التَّمَثَّالَانِ، يَكَادُ

كلاهما من شدة الأنين يُجتزّ من قاعدته هاربًا، أتكن برأسي على لبنة من طوبٍ وأغمض عيني كأنما استمع لتأوهاتهما، يترسل التمثالان في نشيدهما المغيبي الجنائزي، كلما آوت الشمس إلى غياپ تعذبًا وصرخًا، كأنهما يحتميا بضوئها، فيما تشبعت شقوقهما بالندى، الذي يمنح الصراخ، مع سريان الريح بفتحات التمثالين، مهابةً وألمًا ومسحةً شجى.

والريح إذا خلّت إلى وادينا، وقلما فعلت، تكسر، تطيح، تُهلك ولا تُبقي، في بطن الريح تتجول الكائنات التي كُتب على مدينتنا أن تلقاها؛ ربّما ذات غفلة أسطورية.

في بطن الريح يصطرع الجنّ المشهود لهم بالنجاسة، أو المُقدّر أن يسرحوا إغواءً للبشر على إغواء، يتجول الشرُّ على إطلاقه، وتنفلت المهالك التي لا يمكن احتمالها؛ هكذا تعودنا أن تكون الريح.

أفرد ذراعي، أفرك تراب الأرض بأصابعي، اتحسّس دفئه، يستمرّ التمثالان في نحيبهما، وفي مجرى الطريق البعيدة كان يتمخطر عجزٌ بحماره، يرفع يده يُلقِي السّلام، أمنحه سلامًا عابرًا ثم أعود ببصري نحو التمثالين.

قالت أمي، منذ سنواتٍ، إنّ التمثالين يسكنهما رصدٌ،

هـ...تني بقراءة القرآن باستمرار، إنَّ أسرارَ حروفِ  
 هـ...ان قادرةً على صَرفِ كُلِّ شَرٍّ، ورغم ذلك، رغم أنَّ  
 هـ...ل مصحفًا صغيرًا في سيَّالةِ جلبابي، رأيتُ بعيني  
 هـ...د.

هـ...الليل يومذاك بلا قمر، وكنتُ قد غفلتُ مُتعبًا  
 هـ...م أشعر بحلوله، وما كدتُ أفتح عيني حتَّى بوغتُ  
 هـ...سد يدنو مني، كان على هيئةِ أسدٍ، لكنَّه أسدٌ  
 هـ...ول مثذبةٌ شاهقة، وكان مِن حجرٍ، وهو يتحرك  
 هـ...وي بدتُ أطرافُه تطلق، وبدا زئيره يجلجل في  
 هـ...الآراءِ، ولمَّا نهضتُ استعيز وأحاول النجاة، كان قد  
 هـ...ل بقدمه على جسدي، مرَّ فوقِي، اختنقتُ أنفاسي،  
 هـ...نقتُ للحظةٍ مارقيةٍ، والأسدُ الحجريُّ ينزع قدمًا  
 هـ...سط بأخرى، بدا لا يعمد لي بالتَّحديد، كأنَّ له وجهةً  
 هـ...د، بل بمجرد أن مرَّ مِن عليَّ اختفى.

فصتُ على أمي هذه الحكاية، صاحتُ بفزع:

خلاص، استأجر عاملًا ليتسَلَّم الأرض منك ويزرعها!

أنتِ تعرفين أنَّهم يخشون أرضنا يا أمي.

البلد مليئة بالعمال يا «طواف»!

لكن أرضنا عند التَّمثالين.



وايُّ تمثالين يا أمي؟!

هنا أجلسُ منذ طلعةِ الصبح -وحتى تزولِ النّـ  
في حراسةِ الأرضِ، أرضُنا تجاور التّمثالين، وهي  
قيل إنها مرتعٌ للأرواح والجنان، لذا، يرتعب منها  
نزرعها برسيماً وجرجيراً، يفصل فيما بينهم شجرة  
قديمة؛ قِدم التّمثالين، أو كأنما مِنْ عُمُرِ الأزلِ.

## شجرة جميز

شجرة الجميز هذه؛ ورغم انتشار شجر الجميز في  
المدينة، بين الحقول، الوديان، البيوت، تبدو متأصلة،  
ألم أنبتّها الربُّ قبل البشر.

لم يكن أحد يعرف كيف نشأت، أو من أيّة بذرة  
سحورة، جذعها بزرقة النّيل، وأفرعها كالأيادي التي  
ارتبت على المعوزين وقت الشّدة، لا خشنة ولا قاسية،  
أو ذات قشورٍ وتشقّقات، بل ناعمة، ملساء، خلاف  
أشجار الجميز الأخرى في المدينة، لا يتبدّل شكلها ولا  
رميها جرت عليها الأزمنة.

تربي الآباء، ومن قبلهم الأجداد، على وجودها، بالأحرى على أساطيرها، كل الذي يعرفونه عنها الأسطورة.

قيل إنها تحرس التمثالين، وما يخبئانه أسفل منهما من كنوز، وقد سرد أكثر من عابر في ليل الطريق أن الشجرة تُبعث مارداً، يقطع عليه الطريق، تُبعث مارداً جسمه مشتعل، يهدر في نبرة تكاد تنزل لها الأحجار، يتمدد بعرض الطريق، فيضطر العابر، من فزع، أن يستدير ويرجع مهرولاً.

هذه حكاية، أما بقية الحكايات التي شيعت عن شر الشجرة فلم تؤثقها الألسنة، بل عمدت إلى عدم ذكرها، كل ما يريدون توثيقه عن الشجرة أنها مبروكة، يطب بها العليل.

جربوها في هذا الأمر، مَرَات ومَرَات، كل من له ولد صابته حمى، أو لسعته عقرب، يكفي أن يستظل بها طيلة نهار كامل، فيكون شفاؤه، لذا، إن جرو أحدهم أن يذكرها بالشر، سرعان ما يوبخونه، ويتذكرون بركتها.

إن مدينتهم هكذا، مهما تخفى الشر، لا يشعرونه.

مهما تبدلت هيئاته لا يرونه.

هل يوقنون في الخير إلى هذه الدرجة؟!

## سام

الجبَلُ يُسْتَوْقَفُ، كالمُرْغَمِ، فيما خلف شجرة جَمِيزٍ  
مُدمِيةٍ، تسدُّ النَّظَرَ، تحجزه عن العبور إليه، تبدو  
كالشَّيخِ امرأةٍ عَجُوزٍ خرج فجأةً من صُلْبِ العتمةِ.

راحت ملامحها تتكشف على رويةٍ، التجاعيدُ  
الأخادية في وجهها، اتسعت عيناه ولم يقوَ على الصُّراخِ،  
لم كلَّ اختلاله الذي يُمكن أن يدفعه لهذا، إنَّ الحكايةَ  
المديمة التي كانوا يرهبونهم بها وهم صغار ماثلة  
الجسم، نفس الوصف، الملامح، الرعب المُستطير من  
أعشى الخرافات!

إنَّها «الشَّاويشة»<sup>(٤)</sup>؛ المرأة الطَّاعنة التي تحرس مخابئ الموق، والغازهم، تحرسهم منذ آلاف السَّنوات، لم يرها إلَّا السَّلف، كانت تخرج في اللَّيل، حين تطمئنَّ إلى نفوق النَّهار، تعاقر الجبَّانة والمقابر وتوايبت القُدَّامى، تحرسهم في انتظار أن يجسر رجل على اقتراف أيِّ شغفٍ أو طموح، كي تُجْهِز عليه، تقتات على روحه، فتظلُّ -بوجودها- كلَّ القبور القديمة والتوايبت والمومياءات آمنةً حصينةً، وكما تحرس بطن الأرض، تحرس -أيضًا- كلَّ الأساطير التي يُجوز أن تنشأ من سيرتها، كأنَّها تُحيي الحكايات وتجعلها مبعثًا للرَّهبة كلَّما مرَّ الزَّمن.

«الشَّاويشة» تتفرَّع من الشَّجرة، تصبح الأغصانُ أيادي، يصبح الجذعُ صدرًا، فبطنًا، فساقين، فجسدًا على اكتماله، والجبلُ يتهشَّم من حولها، يصير شظايا من حجارة، تتساقط على «الشَّاويشة»، فتلتحفها.

تغطِّي بالأحجارِ جسدَها، يصبح فتاتُ الصَّخرِ ثوبَها الذي يستر عريها، تُدَقِّقُ عظامُها وهي تُستبدَّل بالأحجارِ، قطعةً قطعة، فيما كانت تتضخَّم، تشعُّ عيناها شرًّا بلونِ الدَّم، ثم تضحك، بصوتٍ لا شبهةً بشريَّة فيه، تصبح:

- أقسمتم ألا تدنِّسوا جسدًا مقدَّسًا!

يكاد «سام» يموت فرغًا، يموت حيرةً، قلقًا من المصير.

دام بحثه عن الأسطورة سنوات، لكن الأسطورة تباعته،  
 ودها طاع، نادر، وله رعدة لم يجربها من قبل، أسطورة  
 يشهد سواه مثلها، كُتب عليه أن يكون شاهداً عليها،  
 جديد ربما، وها هو معلق بين الواقع والخيال، ها  
 مشدود من جهتين إلى حيث يمتلئ الظلام بأطرافه  
 الأربعة، في حين كاد يتمزّع، ولم يزل لا يشعر بالألم!

وبينما تتضخم «الشاويشة» أمام عينيه، يشفط  
 منها كل المشاهد المعشقة بالظلام، كأنها نقطة  
 داب كبرى، تتضخم فتعصف الريح، وتقتلع الأشجار  
 السيدة نحوها، وتقرب السماء بدوامة، تتضاءل، كأنها  
 حق، لترقى إلى صدرها وتمتزج به.

كان فمها فاغراً يسحب إليه هواء الريح، وكانت  
 منه، على مهل، وفيما تدنو، تزفر الريح من  
 صدرها، تزفرها ندفاً مشتعلةً، وتزوم:

عهدت بي إليكم فنقضتم العهد.

وإذا بالعالم الخالي من حوله يتحوّل إلى أطلال  
 متفرقة، نيران، الحجارة تشتعل، والأشجار، ومن بقايا  
 اللام يستوقد الجحيم كأنه يُبعث إلى قيام، وفيما  
 كانت النار قد طالت جسده، فاشتعل بدوره، كانت  
 «الشاويشة» تخرقه، تعبره إلى حيث هناك، إلى حيث  
 اللام آخر، وربما أسطورة فريدة في تمام انبعاثها.

## الطَّوَّاف

حَصَّنْتَنِي أُمِّي مِنَ الشَّرِّ وَالسَّحْرِ بِقَرِطٍ مَبْرُوكٍ.

قبل سنواتٍ عَوْدَني أبي، أيضًا، من الأساطيرِ ومن  
السَّحْرِ، قرأَ عليَّ رَأْسِي قرآنًا وبخَّرَني، وصنعَ لي حِجَابًا  
عن الشَّرِّ عِنْدَ شَيْخٍ فَارِسِيٍّ، قالَ لي بَعْدَها:

- إِنَّهُ مِنْ قِمَاشٍ زُخْرَفَ بِآيَاتِ الْقُرْآنِ وَطَلَّاسَمَ  
الْحُرُوفِ.

ارتدي الحِجاب بالذَّوام، لا يُفسِده ماءٌ ولا عَرَق ولا  
مهد، لم أنزعه عن رقبتني منذ كان عمري عشر سنواتٍ  
أو أقل، أحتفظ به -فضلاً عن التعوّذ- كذكرى من أبي.

أحدُ الجنِّ المَرَدَةِ الذين حلّوا مع موسم ربيع  
قديم مسّ أبي، لم أكن قد تجاوزتُ الثلاثةَ عشر عاماً،  
الكني رأيتُ أبي يتبدّل، كانت ملامحه مرتعشةً ونظرائه  
غير مستقرّة، خرج به أعمامي إلى المشايخ في البلدان  
المجاورة، وصعدوا به إلى الشَّيخ «حسيب الجبل»،  
حاولوا مرّةً وأخرى أن يفكّوا عنه المسّ، بلا جدوى، بدا  
...أكانه مُستفجلاً لا يريد مغادرة جسده، ثمّ أهلكته  
...لملعةٌ من طلعاتِ الشِّفاءِ مع أعمامي، قالت أمي  
وهي تبكي:

- ذهبَ أمامَ بصري، تركته يذهب، وإن ظلّ قلبي  
الخشى شيئاً سوف يحدث، لا أدركه، كان الضُّبابُ وقتئذٍ  
يُحاصر الأفق، وكان الشّتاء قارصاً، خرج وقلبي يرافقه،  
ولمّا عاد لم يحك شيئاً، بل أخذ يسعل، حدّ أنّه من  
شدة سُعالِه رشّ عليّ من فيه دمّاً، كان الدَّمُ غزيراً،  
فصرختُ أنوح، اتّسعتُ عيناه وأخذ يتمتم عبارات لم  
أفهمها، رميتُ جسدي عليه حين مضى ينتفض، شخص  
...لويلًا إلى سقف السَّماء، ثمّ أراح رأسه على كتفي، ولم  
يُعدّ هنا.



لكنني كنت أرى في أعين أعمامي توقيراً لم يبده زمنٌ،  
وعزاءٌ دام بدوام التذّكر، يقولون: «ماتَ بين أيدينا»، ولا  
يزيدون على هذا القول، ومهما حاولت أن أستفسر عن  
الذي جرى له في الخلاء هناك، يظلّ قولهم مقتضياً لا  
يحمل آية إجابات!

اختار لي أبي اسمَ «الطّواف» وفاءً وعرفاناً لجدي؛  
أبيه، الذي لم يكن ثمّة حديث في مدينتنا إلا عن بركته،  
حيث كان إذا جسّ بطن الأرض بيده أخرج خبيثتها،  
وكثيراً ما كان يُدرك أنّ ثمّة ما لا يمكن البوح بأسراره،  
إنّ للأرض أسرارها، وكان جدي حافظ السرّ، وكان الناس  
يعرفون أنّ ما يُدركه جدي من الأسرار لا يُحصى،  
ولا يُقاس به ما يُفصح عنه، كان جدي يعرف أسرارَ  
الأقدمين، يحوِّط ويعوِّذ البيوتَ والنّفوسَ ببركةٍ وبهبةٍ  
من الأزمنة الغابرة؛ أزمنة الحجارة والسحر.

كذلك كانت تصرّ أمي أنّ لجدي أسراراً لم تُكشف  
لبشرٍ بغد، فبينه وبين الملائكة قصّة، كانت تقول:

- تفتنّ ملاكٌ في صنعٍ عطرٍ برائحة السّماء، ومنحه لجذك  
امتناناً ومحبةً، هو العطرُ الذي يفوح من أثوابه دوماً.

ولأطمئنّ لكلاميها، كنتُ أحشر أنفي بين جلابيبي  
أتشمّم، كانت تنبعث منها رائحةٌ غريبةٌ، لم أشمّ مثلها  
من قبل، وكنتُ أحياناً ألتحف بملابسه وأخلد إلى النوم،

على أمل أن تنهال عليّ بركات الملائكة وروائحهم إذا  
سرى الليل، وأثناء نومي؛ كنت أرافق الملائكة على  
الأسطة المخملية التي تحمل أعمدة السماء فيما وراء  
الأفق، وكنت أدلّل بينهم، أمازحهم، أراقب معهم  
الأرض من أعلى.

وكنْتُ، رغم عمري الصغير، يروق لي الإنصات إليه،  
ثانٍ بي أتعرف إلى الأشياء من خلاله، وكان جدّي، إذا  
أوشك الفجر، يوقظني، يسقيني الماء، ويصحبني إلى  
غرفته المقببة في آخر البيت، حيث تكون سجادة  
الضلاة مفروشة، وماء الضوء يسخن على «الكانون»،  
املاً ماعوناً بالماء الدافئ وأطلع أمام باب الغرفة  
أنوضأ، تزقزق العصافير التي تسكن شجرة النبق في  
قلب البيت، يجلس جدّي يقرأ من المصحف، حتى إذا  
ما انطلق الأذان وقفْتُ خلفه، وصليْنَا.

كنت أحب أن ألعب معه في غرفته، كانت الغرفة  
منشأة على وضعيّة عُرف الطوب اللبن العتيقة، سقفها  
مقوّس، مبطن بالقش، فكانت الجدران تسلّم الأصوات  
أبعضها البعض، ألصق أذني بزاوية الجدار الأيسر،  
وأصيح فيه:

- هيا يا جدّي.

يضحك، يقوم إلى الجدار المقابل متوكأ على عصاه،

يوشوش بصوتٍ غير مسموعٍ، لكنّه يدوّي في أذني،  
أتقافز، أهّلل:

- كنت تقول كذا وكذا.. صح؟!

يضمّني إليه، أنام جواره على السرير، أقول:

- هل هذه الجدران مسحورة فعلاً يا جدّي؟

يمسّد رأسي:

- لا يا «طوّاف»، لا يوجد سحر، إنّهُ علم.

- لو عاد الزّمن بك يا جدّي هل كنت ستصبح  
عالمًا؟

- لا يُمكن العودة بالزّمن أبداً.

- لكنّ أبي قال بإمكاننا تغيير القدر.

- القدر غيب، كيف يُمكن تبديل ما لا نعرفه؟!

- قال أبي القدر يتغيّر الدّعاء.

- الدّعاء يا «طوّاف» يجلب العفو والغفران ولا يغيّر  
أقدارنا.

عرف الجميعُ جَدِّي صالحًا، إذا طَوَّف في البلادِ فهو بطَوَّف بلا هيئةٍ آدميةٍ، مثل الملاكِ، يستكشف الأسرار، يدعوهُ الناس لمجالستهم، والتبرُّك به، وكانوا يقولون: إِنَّ وَجْهَهُ يَتَلَوَّن بِلَوْنِ الْغَيْبِ، ويرونه ممتطيًا حصانًا أبيض له جناحان ويرتدي لباسًا من ورق الشجر، أخضر في أخضر، على كتفيه غرابٌ يستشرف عنه المستقبل، يخلق معه أحيانًا، يستنبئ الأشياء بصوته، قالوا: إِنَّ صَوْتَهُ حَادٍ، يجلس في أرجاء الليل، يشاهدونه وهو «المير في السماء، يخلق فوقهم، فوق بيوتهم، مع غرابه، تأتيه النساء ليقرأ على رؤوسهنَّ، يفك السحر عنهنَّ» وعن أولادهنَّ، فبات الناس يراودونه ينشدون بركته، «ؤمنون بولايته، بسلطته، وقالوا: إِنَّهُ كَانَ يَخْرُجُ فِي اللَّيْلِ، بصاحب «الشاويشة» حارسة القدامى، فتمنحه أسرار الأرض، يصيد أفراخ العصفير من بين فروع الأشجار، يحنطها، ثم يدقها، يصحنها، يحشو بها أفواه الموتى ليلاً كي يحضن الأحياء، قالوا: عَوَّذَ الْجَمِيعُ بِبِرْكِيهِ، وصار مشيئتهم، واختيارهم، إذا غابث السماء ولعب مع القدر والغيب فهو لا يفعل إلا لحمايتهم من الشر<sup>(٥)</sup>.

غير أن أمي قالت:

- نعم كان جدك هكذا وأكثر، لكن قبل أن تكون أنت يا ولدي، كأنه ارتزق بك، فاكتملى.

## سام

قالوا: يا «سام» لا تعبث بجوف الأرض..

لكن «سام» عبث.

ضلّله الخبل، أغواه حلم الخبيثة، أدرك الجميع في المدينة أن طيح بعقله وبشأته، بات يلهث خلف الخبيثة التي دُفنت في بيته ذات طقسٍ قديم، بل إنه، وعلى غير عادة، عاقر ضفاف النيل في انتظار كشف

«سيجئ مع مركبِ الشَّمس، مع «رع»، إله القدامى،  
بالطبع استهزءوا به، وتندروا عليه، وكلما قابلوه قالوا:

- الخبيثة تمنحك نفسها يا عبيط، لن يجدي انتظارك  
ولا بحثك عنها.

وكان يجنّ جنونه عندما يقبّ الماء من بطن الأرض  
في قلب بيتّه، فهكذا لن يستطيع ولو عشرة مشايخ  
كلهم أن يخرجوا الخبيثة المدفونة، وفي كل مرة يظهر  
فيها الماء يردم البئر قبل أن يغرق الماء البيت.

قال له أحد المشايخ إن هذا من فعل الجن حارس  
الخبيثة، إنه يصونها بخروج الماء، وعلى «سالم» أن  
يحوّل خبيثته قدر ما يمكنه، بالتعاويد، بالمشايخ،  
بالبخور، بالدّاب، طالما يصّر على استخراجها، وإلا غارت  
في عمق سحيق من بطن الأرض، فيستحيل الظفر بها.

استقدّم شيخاً من مغرب البلاد، كان الشيخ مشهوداً  
له، يُخرج من جوف الأرض ما لم يستطيع رجل أن يخرجّه.

الشيخ أقام في بيت «سالم» لأيام طويلة، قرأ على  
الخبيثة وحوّز البيت بالزّموز، دقّ المسامير في الزّوايا  
وغطّى الجدران بالخيش، لكنّه أخفق، ورغم الأموال  
التي أنفقها «سالم» عليه لم يفلح.

الشيخ المغربي هز رأسه حينذاك في قلة حيلة، وخطب  
كفًا على كف:

- لم أشهد مَنْ في قوّة ماردك مِنْ قَبْل.

- لقد لبّيتُ لك كل ما طلبت!

- هذا الأمر أكبر مِنْ قُدْرِي.

وطرده، بغد أن احتجز خواتم الفضة والذهب التي  
يلبسها في يده، نظير ماله المهْدَر بلا جدوى، وقبل أن  
يغادر، هذّده:

- لم يسطُ عليّ أحدٌ قَبْل ذلك يا «سام»، صَع في  
حسابك أن الدنيا دَوّارة، هل هذا ثمن خدمتي لك؟

- توكل على الله يا شيخ.

وأشاح بيده يُصرفه.

ذات مساءً، وجدوه واقفاً تحت المطر خارج بيته  
يرتجف، ويتضرّع، كأنما جُنّ، يتشنج جسده، تتقد  
عيناه، يزوم بشفتيه، تتحوّل ملامحه، تتجعّد، يعقد  
حاجبيه، وتتسع فتحتا منخاريه كأنه ينفث الصّهد، بلا  
منطق.

يهزول الناس إليه من فورهم، يحاولون تحريره من  
اللال الجنون، لكنه يطبق على رقبة أحدهم، فيحتقن  
وجهه، ويصرخ.

يندفع نحوه الآخرون، يسقطون عليه، يكالبون  
الشيطة على جسده، لكن قوة غير عادية ولم تؤت  
بشر كانت تسكنه، تدفعهم جميعًا بعيدًا، يُفزعون.

يصيح أحدهم:

«سالم» ملبوس!



## الطَّوَّاف

بيئنا يقع محاذيًا لمعبد «الزمسيوم»<sup>(١)</sup>، على جهة امتدادٍ مخازن غلال سيدنا «يوسف»، تسوره الجبانة من الناحية الأخرى، كنتُ أطلّ من الشرفة على المعبد كأتّي أناجيه الأسرار، كان جدي يقول:

- تُرك المعبد لنا كي نوثق علاقتنا بالأسرار.

معبد «الزمسيوم» له أبواب يستحيل عبورها إذا حلّ الظلام، تقوم حول المعبد كأنما تصونه من عبث

الأزمنة، ويتألق متنه في الليل بأضواء طالما كنت أشرح  
 صري معها وهي تنفجر نحو الأعالي، كانوا يكذبونني،  
 هولون: «يا لخيالك!»، لكن جدي كان يصدقني، فقد  
 كنت أرى، وما أندّر مَنْ يرى في مدينتنا! إنها المدينة  
 التي تخشى الظلام، خشيتها الموت، مدينة تحرسها  
 الحجارة، مدينة عكف أهلها في الحكايات الغابرة  
 على خدمة كهنة المعبد، وخدمة كبار الموتى، ودفنهم  
 على يلق، كانوا يسمّونهم: «عمّال الجبانة»، ولم يكن  
 لهم حظّ مثل حظّ «العامة» الآخرين، لا يشاركونهم  
 الاحتفالات ولا الأعياد المُقامة على مدار الأعوام، لكن  
 إن لهم الحظّ في التقرب من الآلهة أكثر ممّا أُتيح  
 لـ «العامة»، حيث سكنوا جوارهم وبينهم، وتحدّثوا  
 إليهم بلا عازل، وإذا قدّموا القرابين، قدّموها بلا تكلف  
 ولا بهرجة، كأنّ المرء فيهم إذا خرج من بيته واكتفى أن  
 يتهل للآلهة، فهكذا يقدّم قربانه.

كان جدي يقول وهو يشير بإصبعه نحو المعبد:

هؤلاء جاوروا الآلهة، فاستقرّوا في آخرتهم.

وكنْتُ مثل جدي؛ أرى الأرواح التي لعنّها الإله  
 «وو»<sup>(٧)</sup>، أراها عبر هذه المساحة الشّافية بين الزّمان  
 والمكان، تتخذ رحلتها إلى جوف المعبد، فيما كان جدي  
 «ك»، من عند آخر الجبانة التي تحفّ مدينتنا،

وإلى الشوارع الفاصلة بين بيوتنا ومعبد «الرمسيوم»،  
انتهاءً بالمنصة الملكية المقدسة في المعبد، يتمشى على  
مهلٍ، كأنما يقود الأرواح للمستقر، لم يكن يكثرث إن  
اتهمه أحدُ أبنائه بالمبالغة وهو يقص عليهم مجريات  
مغامرته مع الأرواح؛ رغم مكانته بين الناس ومعارفه  
الغيبية، بل كان يقول:

- أرى ما لا ترون.

أجل؛ مثله أنا، أرى الأرواح، ولو بشكلٍ جزائي،  
توقظني بأنينها في غيابة الليل، فأتبعها.

أصواتٌ ترغي في رأسي، إنها الأرواح، لا أعرف إن كانت  
هذه هبة أم لعنة! إنما، وما دام جدي يصاحب الأرواح  
الملعونة، بل ويهيم على وجهه خلفها، فلاكن مثله.

## حسيب الجبل

وهو يصعد الجبل، ينحني يتشمم الأرض، يبدو أثرُ  
الأسرار التي يتتبعها كأنَّ صدره مُغلقٌ عليه، وثمة شيء  
يدفعه لمواصلة التتبع، على الأرض يقرأ كلَّ الآثار، يحاول  
أن يصل إلى السرِّ، وظنه سيقراً للإشارات والعلامات  
بشكلٍ صحيح، طالما فُطرَ على لغزٍ لا إجابة له إلا من  
خلاله، من داخله.

في الأسفل يبدو ضوء المصابيح في الشوارع مختنفاً،  
أهراً المشاهد وتشحَّب عند حلول الظلام، يواصل

صعوده، لا يخاف من الليل، طالما اختبر حواسه تجاه الليل، لم يغب اختبار، كل مشاعره متوافقة بشكل غرائبي مع طبيعة العتمة، وعبر حواسه أدرك، أيضاً، أن الأسرار برمتها بنت الليل، الأسرار مجدولة في حضور القمر وفي سريان الغيم بأعجاز الليل، أما النهار فللبشر الآمنين من الأفكار ومن التساؤل، لا لمن يضنون إلى فض الأسرار ومعاقرتها.

إنه لا يعلم بالتحديد ما الذي سيصل إليه، كل الذي يعرفه أنه مكشوف له، حتى في سنه الصغيرة هذه، يُدرك أشياء ليس يُدركها العجائز، قالوا بُعث «حسيب الجبل» إعجازاً، على أي إعجاز إذن كان بعثه بهذه الكيفية طالما الوصول عبثي؟!

بدا الجبل يجري في روجه، كل رؤاه صخرية على هيئة الجبل، كل أحلامه ناشفة مثل خصال الحجر، الجبل نفسه يهمس له، يستدعيه.

بلغت قدماه موطناً من الجبل عرف فيما بعد أنه مكان ولادته، رأى يداً ذهبية عرضها أشبار وطولها أمتار تستريح في بقعة بعينها، لامسها بيده، لم يجفل، أنباه همس أن هذا الموقع دون غيره هو مستقره.

بالبلطة حش الشجر، قطع فروعه، ملثم الأفلاق الخشبية المتناثرة في الخلاء، ربط الأخشاب بأوتار

«هَزْرَةٌ مِنَ اللَّيْفِ وَمَضَى يُنْشِئُ بَيْتَهُ، فِي الْمَدِينَةِ تَرْكُوهُ  
 أَهْوَا جَسَدِهِ، كَانُوا يَخَافُونَهُ، وَكَانَتْ أُمُّهُ تَخَافُ عَلَيْهِ  
 «هَمْ، أَنْكَرْتُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّبَعَ سَطْوَةَ الْجَبَلِ عَلَى رُوحِهِ،  
 وَادَّاعَاهُ، بَلْ افْتَرَضْتُ أَنْ يَسْبِغَ نَاسُ الْمَدِينَةِ جَنُودًا عَلَى  
 أَهْلِهِ، لَكِنَّهُ طَمَأنَهَا:

سَأُزَوِّدُكَ مِنْ حَيْنٍ إِلَى حَيْنٍ يَا أُمِّي، أَمَّا النَّاسُ  
 فَسَيَصْعَدُونَ لِي، لَا تَحْمِلِي هَمَّهُمْ.

وَمَا خَلَّتْ رُوحُهُ إِلَى الْمُسْتَقَرِّ فَرَفُورَانِهَا، لَعَلَّهُ أَنْبِيءُ  
 أَنَّ السَّرَّ قَدْ يَتَرَاءَى لَهُ، فِي لَحْظَةٍ آتِيَةٍ، قَدْرِيَّةً، عَلَى هَذَا  
 الْجَبَلِ.

خَلَّتْ رُوحُهُ إِلَى الْمُسْتَقَرِّ كَأَنَّهُ مَأْمُورٌ.

## الطَّوَّاف

في هذا اليوم البعيد؛ وكنتُ صغيرًا، ابن سِتَّة أعوام،  
شاهدتُ جَدِّي يخطو داخل المعبد.

على ترقبٍ خرجتُ أتبعه، أتبع الأرواح، كنتُ حذرًا،  
إنَّ الأسطورةَ مقدَّسة، وحامل الأسطورة أيضًا، وأيَّ حظٍّ  
أن يكون حاملها جَدِّي!

معبد «الرَّمْسِيوم» ساكُن، إلَّا من أنين الأرواح، ألج  
بعده، أراه وهو يتلوَّى على موسيقى لا يسمعها غيره،

١٠ انت الأرواح أشبه بالضباب، وكنت من ورائها كأني  
أرى حلمًا طارئًا.

فيل لي مرّات ومرّات إنّ جدي مكلفٌ، لم أفهم معنى  
الكليف، ولماذا جدي؟!

وقالوا عن الأرواح الملعونة التي تسكن المعبد، وكانوا  
إذا تحدّثوا عن الأمر تحدّثوا سرًا، كأنّهم يخافون من  
الروح المعلن، كأنّهم مراقبون من السّماء.

المعبدُ مبلّطٌ بالحجارة، والحجارة غافيةٌ، والأعمدة  
أماخةٌ كأنّها إلى أبدٍ، والأرواح تحوم خلف جدي، وقبل  
الروح المنصّة المقدّسة، أسمع صوت جدي:

تعال يا «طوّاف».

اقتربْتُ، وكانت حواسي على أشدها، الوجَلُ يحفّ  
لواني بينما أقرب.

استدار لي جدي:

هذا قدرُك يا بني، كيف لم تستدلّ على الصّوتِ؟



## سام

يسيطرون عليه بغد منازعة، يسلسلون بالجبال يديه  
وقدميه، يرمونه جوار جدار.

أدركوا أَنَّ الشَّيْخَ الْمَغْرِبِيَّ رَحَلَ وَتَرَكَ مِنْ خَلْفِهِ لَعْنَةً  
مَقِيمَةً، كَأَنَّمَا يُؤَدِّبُ «سَام».

بدا وجهُ «سَام» مَذْخُتًا، مُخْرِبَشًا، تَرَكَوهُ أَمَامَهُمْ وَلَمْ يَقْتَرِبُوا  
مِنْهُ ثَانِيَةً، لَمْ يَكُنْ وَاعِيًا، لَمْ يَكُنْ يَدْرِكُهُمْ، لَكِنْ ظَلُّوا يِرَاقِبُونَهُ،  
أَرْسَلُوا مَرَسَالًا يَسْتَدْعُونَ الشَّيْخَ «حَسِيبَ الْجَبَل».

هبط بغد ساعتين أو يزيد، وقف بينهم يداعب  
استه، وهو يفحص «سام» بعينه، آمن على كلامهم:

أجل إنه ملبوس، وربما أسوأ!

فيما ظل «سام» متشججاً جوار الجدار، عيناه  
محدثتان، بدتا غاضبتين، وفيهما شرر، وجسمه كان  
متهبطاً، كفرين.

«حسيب الجبل» عريض بحجم باب، ذقنه مشعثة،  
أسود الوجه، وقفوا يتهامسون، سمح لهم بالفرجة على  
«سام»، باشر طقوسه خارج البيت، وبينما تغيب ملامح  
«سام» خلف العرق، ويفتح أهدابه ببطء، وفي نظريته  
ثقل، يمد «حسيب الجبل» يده يحاول يصافحه، إنما  
عضه، يطوح يده.

يتناول «حسيب الجبل» مصحفاً، يضربه على رأسه  
ه، يفح «سام»، يفتح فكّيه مثل ثعبان يتهياً لابتلاع  
فريسته، يلصق «حسيب الجبل» شفّيته بأذنه، يتلو:

- ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون<sup>(٨)</sup>.

يتلو جسدّه، يثنّ، يتلو «حسيب الجبل»، يده  
هابضة على رسغ «سام»، يحاول أن ينزع يده، لكنّها  
اشتدّ عليها، يقرأ «حسيب الجبل» الفاتحة، قصار

السُّور، يعرّج بتلاوته إلى سورة البقرة، «سالم» يقهقه، يرتعش جسمه، يقهقه أكثر، يدفع «حسيب الجبل» بيده، ثمّ يستقيم، والحبّال تقيده، يحاول أن ينقضّ على «حسيب الجبل».

اللبس يذلّ الحال ويغيّر الطّبائع، يحتضنه بين ذراعيه، يهمهم:

- حفظًا يا الله مِنْ كُلِّ شَرٍّ.. حفظًا يا الله.

يتخشب بين ذراعيه، وكلّما تخشب تلا عليه مسترسلًا لا يتوقّف، يثور، ينازع أغلاله، يضرب الجدار برأسه، يعلو صوته «حسيب الجبل» بالتلاوة، ينتفخ وجهه «سالم»، يتراجع الناس قليلًا، يبدو على وجوههم القزغ، «حسيب الجبل» يثبّت «سالم»، الذي يحدّق فيه، اللعاب يندلق مِنْ فيه، ثمّ، فجأة، يتحدّث «سالم»!

يتحدّث بلغة غريبة، كأنها تعاويذ، يعوي، كذّيب، يلتصق الناس ببعضهم البعض، فيما يبدو أن الذي بداخل «سالم» يرغب في التحرّر، يبدو أشدّ بأسًا مِنْ «حسيب الجبل»، يعاقر «سالم» بقدميه، يضرب -رغم القيّد- «حسيب الجبل» في بطنه، يفور جسمه، لكن «حسيب الجبل» يلكمه ويستكمل تلاوته.

بتراجع عنه «سام» فيما تشتد وتيرة التلاوة، تتصلب  
 رءاه على صدر «سام»، فينكمش، بينما فمه يزبد،  
 وانشهك، يُشعل «حسيب الجبل» عودَ ثقاب، يطفئه  
 في رغبة «سام»، يتراجع أكثر، يُشعل «حسيب الجبل»  
 وداً آخر، يطفئه بجهته، ينكمش وينكمش، يفتح،  
 ولم «حسيب الجبل» بتعاوذه، يجدل حبلًا، يتلو  
 و. و. يجدل، الحبل من ليف النخل، يلقه على رأس  
 «سام»، تُضرم فيه نار من لا شيء.

تصرخ إحدى النساء اللواتي التففن يراقبن ما يجري،  
 مدجها «حسيب الجبل» بنظرة أمرة، تضع يدها على  
 فمها وتبتلع صرختها، و «سام» يكتوي بنار الثقاب،  
 وداً عودًا، ثم يضرب «حسيب الجبل»، برفق، مفكًا  
 في صدغه، يهبط دم أسود، تنفر عروق رقبتة، يرش  
 «حسيب الجبل» على وجهه ماء، يسرع، تتبدل  
 السرعة إلى خوار، يتلو «حسيب الجبل» ويتلو، يفتش  
 «سام» الأرض تحته، يسقط عليه بتلاوته، يستجديه  
 بعينيه، لكنه يتلو:

- بسم الله.

ينتفض جسم «سام»..

- القهار الجبار.

ينفتح فگاه لآخرهما..

- القهار الجبار.

يكشط «حسيب الجبل» الدّم بإصبعه ويدسه في فم  
«سام»، بينما يتراجع عنه، ثم بذراعيه يطوقه، فيتقوس  
«سام» ويُفرغ بطنه عليه.

يمسّد «حسيب الجبل»؛ أخيراً، شعر «سام»، ثم  
يلتفت للجمع المتفرّج مفزوعاً، يتسم، يهزّ رأسه، يزفر  
الناس، فيما يكون «سام» قد أغمى عليه، للثمام.

لكنّ «حسيب الجبل»، قبل أن ينصرف، استدار  
إليهم:

- لا تطمننوا إليه، إنّها ليست النهاية..

ثمّ تمتم وهو يوليهم ظهره:

- لعلّها بداية شيءٍ لن نستطيع ولا قوى العالم  
مجتمعة أن تصرفه!

## الطَّوَّاف

بالأمس البعيد، في مثل هذا الأوان، كانت تتضوَّع  
الشمس من خلف معبد «الرَّمْسِيوم»؛ كصبيّة خيالها  
البيض ولم تُذرك التجربة، تُبعث على سطوع مقدّس  
مشهود بدوام دنيانا، تُشرف على الجالسين الذين بلغوا  
أربهم من كلّ حدب وصوب أمام بوابة المعبد.

انضمّ إلينا خلقٌ كثيرٌ من البلدان القريبة والبعيدة  
، رجالهم، وقد حطّ دوابهم القادمة من نواحي الجبل  
والصحراء على مشارف بوابة المعبد الكبرى، فالتقينا

جماعات بين رجالٍ تثقلوا بالعباءاتِ الصّوفِ والجلابيبِ الطويلةِ والعمائم، ونساءٍ ضربنَ على وجوههنَّ الأسدلةَ وارتيدين الملاءَ الفضفاضةَ وعقرن رؤوسهنَّ بالمناديلِ على غيرِ إحكام.

تغالطتِ روائحُ البخورِ بروائحِ العرقِ، روائحُ الأطعمةِ بروائحِ العطورِ، أقبلَ بعضهم يصافحون أبي ويلاطفونني، وبدوا على معرفةٍ وثيقةٍ به.

بدأنا في التكدّسِ عند المُرْتَقَى الصّاعِدِ بدرجاتِ حجريّةٍ نحو البوّابةِ، فرَكَ أبي نعليه مِنَ الرَّمْلِ ففرَكَ بِغَدَه، استَوَى بنا المقامُ أمام البوّابةِ فبدتْ ضخمةٌ كعملاقةٍ ولا تُقَارَن، خَفَّ أبي بصره إليها، طالع التكويناتِ الصّخريّةِ -المزيّنة بالنقوش- تتسندُ على بعضها البعض حول البوّابةِ، وتحزّم السّورَ المترامي حول المعبدِ، ثمّ لامس بيده الحَجَرَ الذي يبلُطُ متن البوّابةِ ونحن ندلفُ مع الثّيارِ المتدفّقِ.

في السّماءِ غبشةٌ ضبابٍ، وفيما أراقب المتزاحمين يدخلون إلى جوفِ المعبدِ كأنّهم الرّيحُ تراود الوجوهَ، والأرديةَ، فتفرق، وطيرٌ عبّر فوقنا في سربٍ كان يرثم أنشودةً كأنّها يحتفي بالشيخِ القادم من بلادِ الفُرسِ ليستوطن المعبدَ.

انتشر خبرُ مجيء الشيخِ الفارسي في كلّ بلدان

المسيح، قالوا له حظوة وله سطوة على الجن وعلى  
 أن جوف الأرض، ولما ثبتت مكانته وجزبه الناس  
 به بعد مرة صار الجميع يتوافدون إليه، كل من  
 له حاجة عند ساكني بطن الأرض أو من تم ربطه  
 به حره، كل من كانت له أطماع عند القدامى، كل  
 من في خبيثة بيته، قال أبي إن موت جدّي ترك فراغاً  
 في الناس، تُرى هل استُبدل الشيخ بجدّي؟!

أورد لي أبي فراغاً بجواره فحللت فيه، ضمّني بساعده،  
 رى الناس حولنا بينما نحاول أن نعثر على وجهتنا إلى  
 بيت يُقيم الشيخ في آخر المعبد، استوقفنا مجذوبٌ  
 ماعن في السنّ وناولني ثمرة جوافة وهو يربّت على  
 منجبي، هزّ أبي رأسه لا يُمانع فتناولتها منه، وأخرج  
 الزجل من حزامه قدحاً نحاسياً صبّ فيه عصير التمر  
 البارد، رشفه المجدوب على عجالة وأرجع القدح لأبي  
 شكره، لكنّه أقعّى على ركبتيه ووسّد راحتيه على  
 أنفّي، حدّق فيّ، وقال:

- «الطواف»، على اسم المبروك الكبير.

- نعم هو حفيده.

قال أبي وهو يضحك، فاستدرك المجدوب رافعاً  
 سبابته إلى السماء:



- ابن «الطّواف»، شأنه ليس ككلِّ مَنْ بلغَ شأنًا.

- على التّقوّى ربيّته، أمّا الشأنُ فللّه.

فحصني بعينه:

- كُنْ مؤمّنًا فيما يَنْتَفِعُ به مَنْ همْ بغدك، لقد  
قُدِّرَتْ لك الحربُ، فلا تنصرف عَنْ مصيرِكَ الذي كُلفتَ  
به.

قال أبي:

- أيُّ حربٍ وأيُّ مصيرٍ وأيُّ تكليفٍ؟ لعلّك ترى غيبًا!  
ابتعد وكفّ عن التّخاريف.

استدار له المجدوب معاتبًا:

- هذا الولد سيحملك مِنْ الشّتاتِ يا رجل!

- لا حول ولا قوّة إلّا باللّه، انصرف طيّب قبل أن  
أفقد أعصابي.

جوّل بعينه في أبي:

- إنّما لا يُرى إلّا ما كُشف لنا ذات قضاءٍ إلهي، وكلّه  
بأمره.

أَمْ صَاحٍ وَهُوَ يَشْخَصُ إِلَى السَّمَاءِ:

كَلِّهِ بِأَمْرِهِ.

ووثب مهرولاً وغاب في موج البشر المتلاحق دون  
تأملٍ أخرى، طوّقني أبي بذراعِهِ خشية الزحام، وعرج  
في بين دروب المعبد التي تُشبه رقعة الشطرنج، وكان  
يهرّب كفاً بكفٍّ:

حرب! حرب مرّة واحدة! أعوذ بالله مِنْ شرِّ  
المنون.

## سالم

كان أشدُّ ما يخشَى؛ أن تتعضى عليه خبيثته للأبد،  
رغم أنها لم تكن حلمًا بعيدًا، ولا عسيرًا، بل كانت تحت  
قدميه، على بُعد أمتارٍ، لا يفصله عنها إلا رصدٌ ملعونٌ،  
يأتي أن يُرتزق بها، كمن ارتزق من قبل، وتبدلت حاله.

تحايل كثيرًا، استعان -وفق مقدرته- بالمشايخ  
والدُّجَالين والذراويش، بل إنه جلب أحد القساوسة،  
لكنَّ المارِدَ الذي يحرس الخبيثة كان عفيًا، لا توازي  
قوّته قدرةً، ومهما أجبروه على المغادرة لا يغادر،

١٠ ما حاولوا إحراقه لا يحترق، عافروا معه مرّة بعد  
 ١١ أخرى، ولم تكن له طلبات بعينها يُمكن معها التفاوض،  
 ١٢ الماردُ يلاعبهم، يناوشهم، يطمئنهم حينًا فيواصلون  
 ١٣ حتى يصحو فيهم الأمل، ثم يفاجئهم بالماء حتى  
 ١٤ يصل مستواه إلى صدورهم!

١٥ إن أحد جبابرة الجنّ كيفما أخبره الشيخ المغربي،  
 ١٦ لط عليه أحد المردة التابعين فلبسه، لولا أن صرفه  
 ١٧ «سبيب الجبل» بغد عناء، كما أبلغوه.

١٨ ير أن جسده لم يزل يعتك ببعض المس، يشعر من  
 ١٩ أن لآخر بسخونة أحشائه، يشعر بأنه مغيب بين  
 ٢٠ المين، في أوقات بعينها يرى جاثومًا<sup>(١)</sup> في كوابيسه، وإذا  
 ٢١ اتيقظ يبدو له أن الجاثوم يتقرفص في زاوية الغرفة  
 ٢٢ راحته، كان أسود، ملامحه كملامح الصخر، يراه جالسًا  
 ٢٣ هك في الركن للحظة ثم سرعان ما يتلاشى، يدعك  
 ٢٤ به، يُفزع، لكنه بات يؤمن أن الحدود الفاصلة بين  
 ٢٥ الوهم والحقيقة التبت عليه.

٢٦ يدب الطورية في الأرض، وبصفيحة مقوَّسة ينزع الماء  
 ٢٧ من الحفرة، وكلما أفرغها امتلأت، يكاد يستولي عليه  
 ٢٨ الأس، لولا أنه متشبث بخبيثته، إنه يشعر بها مهيأة  
 ٢٩ هك تنتظر أن يمدّ يده ليتناولها، يده فقط، وتحير  
 ٣٠ ف يُمكنه أن يسترضي المارد الذي يحرسها؟! لا بد من

فعلٍ يرضيه وإلا لأهلكه وتخلص منه! لماذا إذن أبقي عليه إن كان ظهورُ الخبيثة مستحيلًا؟! في مثل هذه الحالات، ومع استحالة الأمر، وتشدد الحارس، يُذهب بالحافِر والمحفورِ لأجله، لاستولى عليه الجنون، فلا هو كان سيعيش متزنًا، ولا ظَلَّت الخبيثة على حالها تلك!

أخذ يُخلي البئرَ من الماء، قال الشيخ المغربي إن هناك سَكَّانًا للأرض السفلى رغم كل شيء، وعليه أن يحتز، وأن يحفر على حذر، فلو طاشت ضربةً وأصابَتْ واحدًا من هؤلاء قُضِيَ أمره، ولا فكاك من اللوثة الدائمة، لذا، راح يضرب محتسبًا، وإن لم يُعد يدري أي سحر هذا!

اشتَم رائحةً عطنةً، أشعل البخورَ واستكمل حفرة، وكان يحاول أن يحدَّ منسوب طَفَح المياه الذي مضى يرتفع ويتسرب إلى جوفِ البيت، فاشتغل أسرع، يحفر بيدٍ وبالأخرى ينزع الماء، ثم فجأةً، انفجرت في وجهه نافورة المياه، فصفع الجدار بالطورية متعصبًا وهو ينفخ.

ردم الحفرة ثانيةً، وعلى حافتيها رقد، وسدَّ رأسه بالتراب، وبدا يتخيل ما الذي يُمكن أن تصنعه معه الخبيثة! ثم بدا له أيضًا أن الجدران تترز، تطلق.

انتبه، رفع رأسه قليلًا، كانت الجدران تتقلب، تتقلص، كأنما ستحاصره فيما بينها لتدك جسمه، قفز إلى

الماء، الحفرة، أشعل بخورًا، واستغرق، وأمسك المصحف وعلى  
الشيخ، لراح يقرأ، آيات بعينها، موصى بها من الشيخ  
المصري، لكنَّ الجدران تنفض عنها الغبار، وتُطْلَقه في  
الهواء سحْبًا كثيفة تتدافع، يكحّ، تحاوطه حلقةُ الغبار،  
اللق قدمه، إلى الحفرة، إلى بئر الماء، يصبح نصف  
سده محتجزًا بداخلها، زوايا الغرفة الأربع تشتعل،  
الار لونها أخضر، وفيما يحاول أن يستنقذ نفسه من  
الحفرة يأتيه الصّوت العميق:

فتاة يكر.

لا يفهم، أهو طلب أم خيال؟!

فتاة يكر بدم فرجها ينقطع الماء.

ما هذا الصّوت؟

أبلغ به الجنون هذا المدى؟!

## الطَوَاف

- وما حاجتنا إلى زيارة هذا الشيخ يا أبي؟!
- المعرفة.
- لكنك قلت إنهم جميعًا دجالون من بعد جدي!
- لثمني على جبیني:
- يُجَزَى كلُّ صاحب سعيٍّ بالمعرفة.





- إِنْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ<sup>(١٠)</sup>!

بدا أبي لا يبالي، ولّى عن المَجْذُوبِ مبسّلاً، كأنّما  
يتخوَّفُ الرِّيحَ، وبَعْدَ قَلِيلٍ، كَانَتْ الْأَشْيَاءُ تَتَطَوَّحُ فِيما  
خارج المَعْبِدِ، تصطدم بالجدران وتتهشّم.

سمعنا صوتًا يَأْتِي مِنْ عِنْدِ أَحَدِ الْجَدْرَانِ، كالفحيحِ،  
بَلْ بَدَا الصَّوْتُ يَنْبَعُثُ مِنْ بَيْنِنَا، لَكِنَّهُ مَجْهُولُ الْمَصْدَرِ،  
كما لو أَنَّهُ يَأْتِي مِنْ تَحْتِ أَقْدَامِنَا، وفيما لحظاتٍ بدأ  
الرِّجَالُ يَتَوَجَّسُّونَ، الصَّوْتُ يقرقع، أمسك المَجْذُوبُ  
منجلاً وضربَ به أسفل قَدَمِهِ، وصاح:

- فلتُظْهِرِ نَفْسَكَ، سوف أحشك بالمنجل يا لنّيم.

- اللّوثةُ شرعُ الرِّيحِ يا ولدي.

قال أبي، ثم أدار وجهه للمَجْذُوبِ:

- لعلّك تفتن إلى ما لا نعرف!

- وما أدراك أنت؟!

وظلّ يصرخ:

- فلتُظْهِرِ.

وبدا يرتعش ارتعاشات خفيفة، ينزّ العرقُ مِنْ وجهه  
م برودة الجو، وَمِنْ خارج المعبد ظهرت فتاةٌ بشعرٍ  
الأسود.

ساح المجذوب يرطن وهو ينظر لأبي:

أرايت؟ الموتُ يسكن عينيها والشرُّ يقدح مِنْ  
الاسمها.

كانت الفتاة متوتبةً، بعينيها شرراً، ذراعاها متشجعتان،  
وبدا وجهها مخموشاً ومتشققاً، وبه جروحٌ طويلةٌ كأنها  
من أمدٍ، راح أبي يبسم، والمجذوبُ يصرخ:

الشيطانُ يأتي مَعَ الرِّيحِ.

ثم استدار لي يهتف:

قاتل الشيطان يا ولد.

ضمّني أبي متخوّفاً، ودقّح المجذوب بيده في عصبية:

مصمّم أنت على إغضابي! اترك ابني في حاله.

الجبيلُ رابضٌ هناك في الأفق يلتحم سنُّه بذيل القمرِ  
الذي شرع ينبذر في السماء، وصرنا لم نعد نرى بعضنا  
البعض إلا على هيئة الطيف المتراقص مِنْ شدة الغبار،

وفي الخارج ارتطم رجلٌ بجدارٍ وسال دُمُه، وانبطح  
رجلٌ أرضاً وتراكمت فوقه حجارةٌ.

بدت الفتاةُ، مِنْ هناك، عند بابِ المعبد، تتلوى،  
تنازع شراً سكنها بالفعل، وراح المجذوب يُبْعِدُها  
بإشاراتٍ مِنْ يديه، ويتعوّذ، ويتلو، ثمّ فيما قليل، قدم  
أحدهم، حملها، وركض بها مبتعداً.

## سام

الصَّوْتُ فِي رَأْسِهِ لَا مَحَالَةَ، صَوْتُ عَمِيقٍ، كَأَنَّهُ طَالِعٌ  
مِنْ جَوْفِ الْبَيْتِ، أَوْ مِنْ جَوْفِ ذَهْنِهِ، لَكِنَّهُ مَلَحٌ، يَزْعَجُهُ،  
لَا يَفْهَمُ، لَا يَرِيدُ أَنْ يَفْهَمَ الْطَّلَبَ، أَهْوِ طَلَبُ الْحَارِسِ؟!

الصَّوْتُ يَتَقَطَّعُ، يَغِيبُ، لَكِنَّهُ يَتْرَكُ أَثْرًا كَالضَّدَى،  
الْحُخْ وَيَلْفُ رَأْسَهُ، لَقَدْ ظَنَّ أَنَّ الشَّيْخَ الْمَغْرِبِيَّ يَخْرَفُ  
مِنْ أَخْبَرِهِ أَنَّ الرِّصْدَ يَحْتَاجُ إِلَى بِنْتٍ يَضَاجِعُهَا، بِوَجْهِ  
أَنْ تَكُونَ بَكْرًا، ظَنَّهُ يَخْرَفُ وَلَمْ يَكْتَرِثْ، مَرَّ الْأَمْرُ عَابِرًا،  
لَكِنَّ الصَّوْتَ يَصْرُ عَلَى بَكْرٍ، مَنْ أَيْنَ لَهُ بِالْإِكْر؟!

يتلاشى كل شيءٍ ويزول الغبار، تعود الجدران لموضعها، ويجلس متسارع الأنفاس، حائرًا، يفكر: هل كان الصوتُ حقيقةً أم محض وهم؟! ماذا إذا حدث الأمر؟! هل ستخرج خبيثته؟!

يتقلبُ على فراشه، بين الكوابيسِ وأضغاث الأحلام، بين أوهامه والأمانِ المرجوة، وعقله يتقضى عن فتاة بكر، على ألا تترك فيما ورائها أثرًا لفضيحةٍ أو مساءلةٍ!

زمارٌ يقدح في حقلٍ مجاورٍ، فيما ينصرف خياله طالعا إلى كلِّ الأفكار المتاحة، يبحث عن الحلول، بلا جدوى، ظلَّ عاجزًا عن مجرد التفكير الآمن، كلَّ ما كان يفكر فيه هو الخطر، قال له الشيخ المغربي احترز، تُرى ممَّن يحترز؟! ممَّن يسكنون أسفل الأرض أم أعلاها!

بغدها؛ بات يجلس أمام بيته يتصيد الأفكار، نهارًا وليلاً، بل لا يكاد يستغرق في النوم أكثر من أربع أو خمس ساعاتٍ، ثم يربطُ أمام مدخل داره، ما حدا بالناس أن يعثرونه بخيله، وقد قال له الشيخ المغربي طالما ذيع سرُّك بينهم فلا اكتمال للأمر، لكنّه، رغم أي شيءٍ، رغم أن كلَّ الناس الآن يعرفون موضوع خبيثته، لم يزل مرابطًا على إتمام المسألة، ولو كلفته عمره، ولو بذل قدر العمر أعمارًا، إن حياته صارت رهينة الخبيثة، بنفس الهاجس الذي دفع نبيًا أن يُفتى عمره في سبيل

١٠. يَشِيدُ مَرْكَبًا خَوْفًا مِنْ طُوفَانٍ مَزْعُومٍ!

وَلَا نَ الْأَمْرَ لَا يَخْلُو مِنَ الْمَفَارِقَةِ وَحُسْنِ الْحِظِّ، بَلْ  
وَالرَّيَّاتِ الْقَدَرِ، وَفِي غَفْلَةٍ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ، عَقِبَ أَيَّامٍ  
وَالْأَمَامِ مِنَ الْحَيْرَةِ، عَثَرَ عَلَى بَغِيَّتِهِ، كَانَتْ فَتَاةَ غَجْرِيَّةٍ  
وَالْمَزَلَّتْ عَنْ خِيَامِ جَمَاعَتِهَا، تَرَنُّنَ الْخَلَائِلِ بِسَاقِيهَا، بَدَا  
الْأَبْلُ تَوَاطًا، وَالْأَشْجَارُ تَتَرَقَّبُ، وَلَا أَحَدًا فِي الْخَلَاءِ الْبَارِدِ  
بِهِ، ذَلِكَ عِنْدَمَا وَلَجَتْ الْفَتَاةُ إِلَى الدَّرْبِ، وَبَدَتْ تَبْحَثُ  
عَنْ سَكَّةٍ لِلْإِمَامِ طَرِيقَهَا، إِنَّهَا مُحَاسِنُ الصَّدْفِ إِذْنَ.

كَانَتْ عَيْنَاهَا زَانِعَتَيْنِ، فَزَاغَتْ عَيْنَاهُ نَحْوَهَا، وَتَأَلَّقَتَا،  
وَأَسْتَوْثِقَ بِهِمَا أَلَا أَحَدَ هُنَاكَ يُمَكِّنُهُ أَنْ يُشْرِفَ عَلَى  
مَمْلَكَتِهِ، فَقَطَّ السَّكُونُ، وَالْبَرْدُ، وَالزَّيْحُ.

لَوْحَ لَهَا، وَالْأَجْوَاءُ مَعْتَمَةٌ، وَفِي حَيْطَةٍ، بَعْدَ تَرَدُّدٍ،  
الْفَرِيقُ تَسَالَى، وَعَلَى سُرْعَةٍ، سَوْمَ بَعِينِيهِ، ثُمَّ كَتَمَ  
أَنفَاسَهَا بِيَدِهِ، عَاجِلَهَا فَلَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا صَوْتُ، رَفَعَهَا  
بِيَدٍ مَتَخَشِّبَةٍ، وَفِي طَرَفَةٍ عَيْنٍ انْفَتَحَ الْبَابُ وَانْغَلَقَ،  
وَصَارَتْ الْبَنْتُ دَاخِلَ بَيْتِهِ.

نَعَمْ لَمْ يَشَاهِدْهُ أَحَدٌ، نَعَمْ وَجَدَ خِلَاصَهُ، إِنَّ الْآثَامَ  
الْأُولَى تُقَرَّرُ بِمِثْلِ هَذَا الشَّغْفِ، الرَّغْبَةِ، بِمِثْلِ هَذِهِ  
الزَّرْعَاتِ الْمَلْحَةِ، وَعَلَى نَهْجِ ذَاتِ الْمَصَادِفَاتِ، فَأَيُّ إِثْمٍ  
إِنْ كَانَتْ فِي الْخَبِيثَةِ نَجَاتُهُ؟!

البنْتُ لم تتعدَّ العاشرة، استطاع أن يسيطر عليها،  
غطَّأها بعمامته، ترك لها مساحةً للتنفُّس، لكنَّ وجهها  
صار ملثَّمًا بالقماش، وبحبلٍ مجدولٍ أحكَم وثاقها،  
ظَلَّت تتلوَّى، بعجزٍ، بقلَّةِ حيلةٍ، دوغما طائلي، إنَّ الخير  
حتماً سيأتيه، عبر الشَّرِّ رغم ذلك، لا بأس من اقتراف  
الشَّرِّ في مقابلٍ استقدام الخير، أليس كذلك؟!

قبع بجوارها يفكِّر، ها هي البكر كما طُلب بالتَّمام،  
كيف سيحدث الأمر إذن؟ هل عليه أن ينتظر؟

البنْتُ تَكزَّ على أسنانها، أشفق عليها، تصوّر ما  
سيجري لها الآن، لكنَّه مثلها؛ قليل الحيلة، لامس  
بأنامله مرفقها، فارتعدت، ودَّ لو تعذره، لو تقبل فقط  
حبَّته، انحسرا معاً في تلبية الغاية، ولا مناص، سوف  
يؤذيان الطريق سوياً، لنهايتها، فإمَّا كان الخير، وإمَّا  
كان الشَّرُّ، على أية حالٍ هو يُدرك أنَّ الخير أجدى، أنَّ  
الخبیثة في حاجةٍ إلى فداءٍ، قربان، ضحيَّةٍ ما.

كان؛ عبر هذه الأفكار، يتأمَّلها، لا ذنب لها، هو  
يعرف، ولكنَّه -أراد أن يصرخ- لا ذنبَ له أيضاً، ينتظر  
وينتظر، وإذا جيء بالخبیثة هكذا فليكن.

سامحيني؛ هكذا كان يهمس لها وهو يفحصها  
بعينه.

انتشل طوريته من كوة الجدار، فليتمم الأمر بنفسه،  
 ٨٩ له انتظارًا، حش بها الأرض، وساقا البنت من خلفه  
 ٩٠ حثان عن مستقر، كانت قصيرة فلم تصل ساقاها  
 ٩١ الأرض، كانت مكورة في حشايا الكنبه، التي راح خشبها  
 ٩٢ رك، والبنت تحاول أن تتملص، أجل يشعر بها، فيما  
 ٩٣ ضرب بالطورية أكثر، فتفتتح البئر، ويعتريه إحساس  
 ٩٤ الوصول، بلوغ المنتهى، وتحقق المشتى، يضرب الأرض،  
 ٩٥ تنفسه، ولم يكن يعرف وهو يضرب أكان الذي يغرق  
 ٩٦ به عرقًا أم دمعا؟! لكن هل يعنيه توصيف المعنى  
 ٩٧ حين انفلت الوحش من عقاله؟!

ضربة، فأخرى، تنشق الحفرة لآخرها، يتراجع، يجاور  
 البنت على الكنبه، تسند رأسها على كتفه تستجديه  
 العفو، يزيح كتفه عنها، ودخان يخرج من الحفرة،  
 لم يكن بخورًا، ولا غبارًا، ولا له رائحة كالتي توافقت  
 إليها أنوف البشر، بل كانت له رائحة الحلم، حلمه  
 فقط، حلم «سالم»، الذي كلما كاد يبلغه تمنع عليه  
 وتدل، حلم «سالم» أخيرًا، ها هو ينبذر أمام عينيه،  
 من الحفرة، حلمه يتمثل كيانًا من بخار، بخار دافئ،  
 يستبعده من المشهد، يغيم الأشياء أمام عينيه، ويحصن  
 فعلته بسائر رمادي.

الحلم يفصله عن البنت، وعمًا يجري، لا يستطيع أن  
 ينصر، لكنه سوف يستبصر، يسمع صراخ البنت، لهاث



المارد، صخب الإثم، يسمع كل شيء بوضوح، ويتسم،  
منتظرًا، كالذي ينتظر نهاية تراجيدية مُبهجة، كالذي  
ينتظر ولادة حلمه، بلَى؛ كلما هلك حلمٌ وُلد آخر.  
طالما للخيال رحمٌ لا ينضب، وصوت البنت يجيش في  
داخله كل الأسى الذي دام على هذه الأرض.

يسمع صوت احتكاك الجسدين، يسمعه أسطوريًا، لا  
يُمكن التراجع عن الإثم الآن، يُفزع ارتطام المارد بجسا  
البنت، يودّ لو يرى بعينه ما يحدث، الدخان قاتم.  
يضمّ في سحابته كل تفصيلة، لا تهرب التفاصيل عن  
سترها، الظلام يطوق بصره أيضًا، ليس أمامه إلا مجارة  
الوقائع المختلصة بالمراقبة على جهل، يلمّ ساقيه إليه،  
وينتظر، يرتعش، يشعر بالنار، بالحطام القادم.

لا يطيق رائحة جسده، ولا رائحة أنفاس المارد  
المحمومة، يتقلّص، يُفرغ ما في بطنه من صمود، تتنمل  
قدماه على وهن، تصبح الجدران الأربعة التي تُحيط  
به كأنها سياجٌ رباعيٌّ مغروسٌ في عظام صدره.

قالوا بدأت الأرض بالرماد، بالرياح، بالزمل والحجر  
والطين، بالأسطورة، بدأت الأرض بالأسطورة، وُلد الحلم  
القديم بالبشر، بالإعمار، من الشمس، كحلمه الذي  
يولد الآن من النار، ألم يكن الحلم كتلة خابية؟! ألم  
يحمل الخواء بذورنا؛ نحن البشر؟!!

«امون»: سيصبح بعد الآلهة كائنٌ يسمّى الإنسان،  
 ١. الوحش بالأحرى، لم يولد إنسان على هذه الأرض، بل  
 ٢. م مسوخًا، وحوشًا، أولستم تعرفون؟! لكن المسوخ  
 ٣. بلا هويّة، وسينحسر الحلم بالإنسان في آخر بقعة  
 ٤. مالمية من هذا الكون، سيصبح الإنسان مجرد وهم،  
 ٥. من شرّ، سيصبح المعنى حبيسًا في هذه البقعة  
 ٦. المخصصة لكل من ضلّت نفسه، طاقة الشر  
 ٧. تسود هذا العالم من بعد<sup>(١١)</sup>.

لم يكن الدّخان قد انبلج، لكن الحيطان بدت  
 ١. شرّ، تستوي، يرمّز عليها بنقوش تضوّي، على كلّ  
 ٢. مدران، فوق كلّ المساحات، كان نقشٌ وحيد يُقدِّم  
 ٣. وبًا مشتعلًا واضحًا:



ومع بدء تلاشي الدّخان، رأى المارد، كانت عيناه  
 ١. مراوين، كأنهما موقدان، رأسه تصل إلى السّقف،  
 ٢. مسدّه مفتولٌ أسود، بصم المارد بأصابعه على  
 ٣. المدران، مرّة، ومرّة، كان الرّمز يكرّر نفسه كلّما بصم،  
 ٤. أن المارد ينفث النّار إلى السّقف فيطلسمه، برموز  
 ٥. ريبية، جميعها مكتوب باللّغة المصرية القديمة.

تقهقر إلى ناحية الباب، أدرك الرّمز، «رع»؛ إله الشمس، ودون أن يفتح المارد فمه سمع صوته في رأسه:  
- اتبع «رع»، تكن خبيثتك.

لم تكن لغة يُمكن تفسيرها، لكنّه فهمها، عرف معناها، ولما صفا الجو من الدخان تمامًا بحث بعينه عن الفتاة، لم يجدها، صاحبها الحارس معه، إلى بطن الأرض، ابتلعتهما الحفرة، واختفيا.

كلّ الذي رآه «سام»، كان، بقعًا من دمها، تناثرت على الأرض وعلى الجدران، ولمعت بلمعان الرّمز الناري، كان «رع» هناك، على الجدار، محفورًا بختم المارد، وبوشم الدّم!

## الطَّوَّاف

آخر عهدي بجدي عذودة.

أبلغونا أنَّ الرِّجال والنِّساء هناك على ضفَّة النِّيل  
يجلبون غريقةً بالعديد والنِّواح، الغجر فُقدت لهم  
بنْتُ منذ يومين فظنَّوا جرفها النِّيل، كانوا قد بحثوا  
عنها في كلِّ البلد، دون جدوى، واقترح عليهم شيخٌ أن  
يجلسوا على ضفَّة المياهِ يستدعون جثَّتها؛ هذا لو  
ظنَّهم أصاب، وكان لزامًا أن يحضر جدي، إنه كاشفٌ  
ومكشوف له.

جَدِّي يَرْتَدِي جَلْبَابَهُ الصَّوْفَ، يَنْفُضُهُ بِيَدِهِ، يَتَأَبَّطُ  
ذِرَاعِي بَعْدَ أَنْ يَلْفَ عِمَامَتَهُ عَلَى رَأْسِهِ، يَمْتَطِي - فِي  
مَشَقَّةِ عَجُوزٍ - حِمَارَهُ، بَعْدَ أَنْ يَسْعَلَ سَعْلَةً طَوِيلَةً  
مَتَقَطَّعَةً، ثُمَّ يَزْفِرُ مَتَنَهِّدًا، وَهُوَ يَتَمَلَّى بِعَيْنَيْهِ أَسْرَابَ  
الطَّيُورِ الَّتِي تَتَدَافَعُ فِي السَّمَاءِ، بَعْدَهَا يَشْدُنِي مِنْ يَدِي  
لِلرَّكَبِ خَلْفَهُ.

يَعْدِلُ جِسْمَهُ عَلَى ظَهْرِ الْحِمَارِ، وَيَمْسِكُ اللَّجَامَ  
بِوَجْهِهِ، فَيَسِيرُ بِنَا الْحِمَارِ عَلَى مَهْلٍ، أَحْوَطُهُ بِذِرَاعِي  
مِنْ خَلْفِي.

عِنْدَ مَرَمِي الْبَصَرِ الْبَعِيدِ؛ تَتَشَابِكُ سَحْبٌ مِنْ غُبَارٍ،  
وَنَسْمَعُ بِالْكَادِ أَصْوَاتَ الرِّجَالِ الَّتِي لَمْ نُمَيِّزْهَا مِنْ  
تَخَالُطِهَا، وَجَدِّي يَضْرِبُ بِكَعْبِيهِ الْحِمَارَ يَحْتَهُ عَلَى أَنْ  
يَهْمَ قَلِيلًا لِنَلْحَقَ بِالسَّائِرِينَ.

عِنْدَمَا بَلَّغْنَا ضَفَّةَ النَّيْلِ، اسْتَقْبَلُوهُ بِأَنْ وَقَعُوا عَلَى  
يَدِهِ يَقْبَلُونَهَا، هَرُولَ إِلَيْهِ أَصْحَابُ الْغَرِيقَةِ، كَانَ جَدِّي  
فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ حَذْرًا، تَحْدِيدًا فِيمَا يَخْصُ جَلْبَ  
جَنَّةٍ أَوْ اسْتِعَادَةَ مَفْقُودٍ، إِنَّهُ الْمَوْتُ، لَا حِيلَةَ لِرَجُلٍ  
أَمَامَهُ؛ طَالَمَا قَالَ جَدِّي هَذَا.

اِكْتَفَى بِالْمَوَاسِقِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَالِابْتِهَالِ، وَجَلَسْتُ  
نِسْوَةً عَلَى الضَّفَّةِ يَعْدُدُنِ، وَيَنْوَحُنِ، وَيَرْمِينِ فِي مَجْرَى  
النَّهْرِ قَرَابِينَآ، أَطْعَمَةً وَفَاكِهِةً وَسَنَابِلَ قَمْحٍ، وَحَوْلَهُنَّ

الزجال بلامح الحسرة والأسى، ولما انقضى النهار،  
انسرفت الجموع على موعد في صباح الغد، سيعاقرون  
.. ليلة النيل لسبعة أيام كاملة طيلة النهار، ثم تكون  
المنازة في كل الأحوال، سواء أخرجوا جثة من عدمه.

في هذه الليلة؛ رأيتُ، فيما يُرى بين حذي اليقظة  
والحلم، الأرواح الملعونة، مرةً بعد، ورأيتُ جدي للمرة  
الآخيرة.

كنتُ نائمًا، ثم بدا صوتٌ ينبهني أن أصحو، كان  
الصوت يهمس:

- «طواف»، موعدك.

سرتُ بهدوء وحذر نحو النافذة الواطنة، خشيتُ أن  
استيقظ أحد على صوتي فينقطع تربصي بالصوت في  
الخارج، أزعجتُ بأناملي خوص النافذة وولجتُ برأسي  
إلى الهواء، كان صقيع الهواء لاسعًا.

رأيتُ جدي يخطو داخل المعبد ومن حوله الأرواح  
للّقه، وقاماتُ الأشجار تبدو من خلفه كالحراس،  
والصوت الذي همس لي فأيقظني، عاد يلح:

- موعدك يا «طواف».

على ترقبٍ خرجتُ، كنتُ حذرًا، والشَّغف يسكن  
حواسي، أدركتُ أنَّ الصَّوت استدعاني كما استدعى الأرواح  
الملعونَة، التحقُّتُ بجذِّي، سرْتُ معه، جلس داخل المعبدِ  
فجلستُ بجواره، كانتُ السَّماء ضبايئةً، قال جَدِّي وهو  
يربّت على كتفي:

- لعلَّك لا تعرف سرَّ استدعائك! أنت العنصر المفقود.

- أي عنصرٍ يا جَدِّي؟!

- ليكتمل الطَّقس.

ولم يصفِ، كانتُ الأرواح قد بدأت تنزلق إلى أعلى  
لتتجمّع كسحبٍ عند منصّة الملك المقدّسة، في هدوءٍ  
وبطءٍ، كأنّها مقبِدةٌ إلى حتفٍ، كمصيرٍ غرائبي، لم  
يشملني فهمه، جَدِّي أمسك بي يطمئنني، وكانتُ  
المنصّة قد أخذتُ تضوّي، ومن حولي راحتُ الأعمدة  
تشتعل نارًا، وفي لحظةٍ عجائبيةٍ، انشَقَّت المنصّة عن  
مركبِ الإله «رع».

مركبُ الشَّمس تبزغ في أواخر الليل، تخرج من  
أحشاء المنصّة المقدّسة، الأشجار تتحرّك، تمثال حجرِي  
يتجسّد حيًّا، ويطوّف حولي، يهمس جَدِّي:

- أنت العنصر المفقود.

جَدِّي يطير إلى السَّماء، بدا تحرُّر من جسديهِ،  
والسَّماء تنزف دَمًا، وصوته يردّد:

- أنت «كا»<sup>(١٣)</sup>..

أهمزق، تتراخى أطرافِي، وموج «حاي» يجيء من  
أحياة الأفق هادرًا ليُغرق قلب المعبد، ويطفئ اشتعال  
أمدته، فيما كنتُ لم أزل أتمدّد، أتمدّد، وكنتُ، قد  
«ولتُ» إلى شجرة، سكنتُ طرف المعبد، لكنها شجرةٌ  
«التُ» تنبض، بتكليفٍ مقدّس.

في هذه اللَّيلة، لم يكن حلمًا، كان كشفًا، في هذه  
اللَّيلة، مات جدِّي، وأظلمت السَّماء من بعده، وكان  
الشرُّ.



## سالم

وهكذا؛ بدا الأمرُ خزعبليًا لا نهايةً له.

تخترقه «الشاويشة» إلى فيما خلف ظهره، ومن ورائها تهرول كل التفاصيل الظلامية، تخترقه وتشده بغدها، كأنه معلق من ظهره في قاطرة تمضي بسرعة الريح، نبت لها قرنان من حجر، وصار وجهها على وجه الآلهة القديمة المنقوشة على جدران المعابد، وبدا جناحها قُدا من طين.

تطوّح جسده الأشبه بالملطاط، وهذا العالم الذي  
 «در به إليه كان بلا ألوان، مجرد درجاتٍ من الظلام،  
 الله يستطيع أن يرى فناءه، يستطيع أن يرى الحقول  
 السوداء وهي تُفترش بالدم، كانت «الشاويشة» تُدْفَق  
 في فمها الدم فيجري إلى الأرض، يجري إلى الحقول  
 السوداء، يصبح الدم بديلاً عن الزرع، تمتلئ الحقول  
 بدمان من الدم، ثم و «الشاويشة» تطير إلى حيث  
 لا محطّ، تراقص، بدت ثملةً، وإن كان صراخها كصراخ  
 «قاءٍ تُبعث من رمادٍ، وكلّ الأشياء تطير معها، بغدها،  
 وهو من ضمن، صار «شيئاً»، أشبه بالشيء، من بين  
 الأشياء التي امتدت لتصنع جسراً إلى الضفة الأخرى،  
 في يمكن أن تسير عليه «الشاويشة»، في قرار أنبيء به،  
 داخل حواسّه، ولم يستوعبه.

كان يعرف أنّ الشرق يخلو من الأساطير، لا يدري لم  
 يريد «الشاويشة» أن تعبر إلى هناك!

المعبر يتجسّم فوق مياه النيل، قوامه الأشياء،  
 التفاصيل، الظلام، وشكله دخان.

ينفلت من قيد «الشاويشة»، يُترك بإرادتها،  
 يصبح هائماً، مفرقاً، لا يحطّ على أرض ولا تدنو منه  
 سماء، ورذاذ الماء ينفجر من حوله، وفي لحظة، بينما  
 «الشاويشة» وأتباعها الظلاميون يعبرون إلى حيث البرّ

الشرقي، تخرج من قلب النيل نافورة، شيئاً فشيئاً ١١.  
تتشكل جسداً عملاقاً، شفافاً، تُرى عبره التفاصيل، في  
يده رمح أزرق، وعلى رأسه تاج من الحشائش، تصيح  
«الشاويشة» بانزعاج مبالغٍ:

- «حالي»<sup>(١٣)</sup>..

يضرِبها بالرمح في صدرِها، تتقهقر قليلاً، ثم سرعان ما  
تعاود لم أجزاء جسمِها التي بدت تتمزّع متفرقةً، كأنها  
طاشت ثم عادت للحظة ما قبل الشتات، فتنتلق نحو  
محلقة، تدخل إلى جسده الشفاف، تخترقه، يتلاحمان،  
معاً ويدوران إلى الأعلى بشكلٍ حلزوني، يدوي الماء،  
الموج يعلو ويهبط، يرى «سالم» الرغوة تسد الأفق،  
وقد انحسر وعيه القديم بالأشياء، وعيه البشري، حاول  
أن يتحرك بلا جدوى، ما زال مُساقاً، مُجبراً على اتباع  
عبثية هذا العالم، يتقلب بين الزيم الهادر، كما يتقلب  
كل شيء، تيارات الماء تتصادم، تتصارع مع «الشاويشة»،  
ويصبح للماء أيادٍ، تصفع، تسطو على الأفق، يصبح  
الأفق في الماء، كأنهم داخل بالون كبير، تنعكس جاذبية  
سائر الأشياء، فيخلق مرة إلى أعلى، ومرة إلى أسفل،  
وفق إرادة المعركة.

تفرد «الشاويشة» ذراعيها بعرض الأفق، يتشكلان  
أفعى كبرى مجنحة، مثل وحشٍ أفلت من أسطورة

١٠٠. د. تحاوط «حاي»، تلتف عليه وتغطي جسده،  
 ١٠١. الماء بلسانها وهي تنفث دخاناً، «حاي» يشرع  
 ١٠٢. النهر، وفي حين يبدأ كل شيء يهدأ، والجسر يمتد  
 ١٠٣. أخرى ليصل الغرب بالشرق، تنشق بطن النيل  
 ١٠٤. صوت يجلجل:

«أبوفيس»<sup>(١٤)</sup>..

١٠٥. الخ الأفعى، تلم أذرعها ولسانها وأجنحتها، تراجع  
 ١٠٦. جسم «حاي»، ينتثر الرذاذ ثانية، يستعيد «حاي»  
 ١٠٧. ه. يتحرر منها، يصبح المذ الذي يغرق كل شيء،  
 ١٠٨. لم أمواجه في غضب، يواصل ارتفاعه حتى يكاد  
 ١٠٩. ل مبلغاً من السماء لا يحذه بصر، يزوم هائجاً، كأن  
 ١١٠. ته الرعد، تستيقظ كل الحواس فجأة، يشعر «سالم»  
 ١١١. الألم، كل الألم يتدفق إلى أوصاله المطاطية، يدور مع  
 ١١٢. ا يدور في فزع، يبدو «حاي» ملكاً مهيباً شن حرباً  
 ١١٣. روساً، وقد تقدم في المعركة إلى حد لا رجعة منه،  
 ١١٤. نافز حوله أقواس قزح، تتألق على جسده الألوان  
 ١١٥. النهارية، يتكاثف قوامه أكثر، تتطوح جلايمد صخر  
 ١١٦. هو قبة السماء.

يتهاوى الجسر كقطع ثلج تتكسر، تتساقط الكائنات  
 الظلامية تباعاً في أديم الماء، تتساقط كأنها مشدودة  
 بسلسالٍ إلى أسفل، ثم يتباعد الماء رويداً ليصنع فجوة

في عمق النيل، يخرج منها ضوءٌ غامرٌ، بلون الذهب.

كان «رع»، الذي أتمَّ رحلته اللَّيْلِيَّة عبر اثنتي عشرة  
بُؤَابة في العالم السفلي، مصارعًا الفَوْضَى والَشَّرَّ، واقفًا  
على مقدِّمة مركِّبه الذَّهْبِيَّة، وفي يده رمحه الذَّهْبِيَّ.  
تدور حول الزَّمَح أسماك «آبدجو»<sup>(١٥)</sup> الزَّرْقَاء، تحرسه، لم  
يكن «رع» يرتدي إلَّا الأشعة، وهيئته على هيئة شمس  
عَفِيَّة لا تقوَّى الأعين أن تقيم البصرَ نحوها.

إنَّه «رع»، يطلع بمركِّبه من قلب الماء كأنَّما ينبذر،  
ومع طلوعه، لا يكون ظلام، ولا أفعى، ولا «شاويشة».  
يبرق الكون من جديد، بينما تغادر الكائنات الظَّلامية،  
مُحِيط هذا العالم النُّوراني، لتحلَّ إلى أسفل الأرض<sup>(١٦)</sup>، في  
عالمها التَّحتي.

(٢)

شَرُّ هَارِبٍ مِنْ أُسْطُورَةٍ

## المسحور

النيل تابوته الذي استلقى فيه على قسٍ.

بدأ الشرُّ على هذه الأرض بالغيرة، إذ أودَعَ «سِت»<sup>(١٧)</sup>  
أخاه «أوزوريس»<sup>(١٨)</sup> في تابوتٍ بحجّة الاحتفال، فصَدَّق  
الأمر، ونام في التابوت، ثمَّ كانت أشلاؤه متفرقةً من  
الجنوبِ للشمالِ.

كان النيل يمضي بأشلائه يوزعها على «مصر».

أيُّ شرٍّ يُمكن أن يجعل النَّيل، مرَّةً أخرى، مقبرة؟!

يتقافز الأولاد، يُفتُلون بأقدامهم الطَّريق الفاصلة بين بيوتهم والنَّيل، ومن خلفهم يغلُل معبد «الكرنك» بأعمدته عنق السَّماء، وهم يستعرضون براعتهم في الفكاك من السَّيارات المازة، يقف أحدهم أمام واحد متباهيًا، ثمَّ لما يقترب سائقها للدرجة التي يكاد يدهسه، يقطع الولد الطَّريق بعيدًا في وثبةٍ طويلة، يغيظ السَّائق، فيبرطم السَّائق ويشتم، ويستكلم طريقه وهو يُشبح بيده.

يتجمَّعون على حافة النَّيل، يجلسون أولًا يدخنون، التبغ الرخيص، ويخططون، يتجادلون كأنهم يستعدون لمباراة، ثمَّ يخلعون ملابسهم، يتسابقون إلى القف من على حاجز خشبيٍّ أنشئ كي ترسو عليه المراكب الشراعية، يصبحون جميعًا في ذمة الماء.

الماء باردٌ، والوقت في أصيل اليوم، يضربون الماء بأيديهم كأنهم ينقسون عن غضبٍ مكتوم، الماء يتحرك من حولهم، يرتطم بالعازل الخشبيّ فيخفق، يتصايحون، يغرغرون أفواههم بالماء، يبصقونه على وجوه بعضهم البعض، وعلى الضفة الأخرى ترفرف الشَّجيرات النابتة على جوانب النهر، يورجحها النسيم، يتدرج خضارها إلى لونٍ رماديٍّ ضبابيٍّ كلما أخذت الشَّمسُ تغطي



،،،ها، مودعة الأفق.

،الترح أحدهم:

تعالوا نعدّي الغرب.

الموج عال.

استرجل.

عدّ وحدك لو جدع!

يتشاورون، لكنهم يخشون المجازفة، خصوصًا مع  
،،مرار الأفق إيدانًا بغروب الشمس، فيقرّرون استكمال  
السيّاحة على هذه الضّفة، يتركون أجسادهم للموج  
، لا تظهر غير رؤوسهم، يحركهم الموج وجهة المرسى،  
،،لفون، تستقرّ حركة أجسادهم وهم مستسلمون  
الموج، ثمّ فجأة تتقلب بهم الأمواج، ينازعون، لكنّ  
النهر ينفرج إلى نصفين، كأنّ قاعه انشرخ.

تكفّنهم السنة الموج العاتية، ترتطم أجسادهم  
بالمرسى الخشبيّ، يُعلّقون في الماء الصاعد لأعلى يتلاعب  
هم، يُفزعون، يرتفعون تارةً، ثمّ ينخفضون، ولما يبدو  
المرسى تحت أقدامهم، لما يشدون بعضهم واحدًا تلو  
الآخر إلى الشّط، وعند انشطار الماء، يرونه متجسّدًا

ضخماً يقترب من عند منتصف النيل إلى الضفة، ثم لا  
جسمه الرغوة، ويتساقط منه السمك والحشائش.  
ويتطاير نحوهم الرذاذ، كأنه يتثاءب.

تابوت الماء الملقول انفتح.

يركضون، لا يللمون ملابسهم، يصعدون إلى الطريق،  
عرايا، وأحدهم يصرخ:

- «المسحور»<sup>(١٩)</sup>!

## الطَّوَّاف

بدنُ الطَّرِيقِ يصفو من السَّائرين، الشَّمْسُ تغازل  
رأس التَّمثالين وهي تودَّعهما، تربّت عليهما، فكأنَّما  
منهما وعدًا بالسَّطوع في الغدِ، يتجدّد كلّ مغيبٍ.

أحسّس على القِرط، وعلى حِجاب أبي.

تسرح عيناي فيما وراء الشّواهد الحجرية التي  
اترامى في الرّقعة الرّمليّة العازلة بين الطَّرِيق والتّمثالين،  
ليس أقسى من الذّكري، تركني أبي منذ سنواتٍ ولم يزل  
الشّوق على حاله.

قال لي أعمامي فيما بغد، عندما أدركوا أنني قادر على  
فهم مجريات الوقائع بملاساتها:

«كان أبوك أكبرنا، كان زينتنا، وأفضل الرجال، لما  
أصابه المسُّ بذلنا كل طاقتنا، كان يرتجف بيننا، فيُسْقِنا  
في أيدينا، لم يداوهِ حكيمٌ، ولم ينفع معه لا شراب ولا  
طعام، قرأنا على رأسه القرآن، ولم يفارقه المسُّ، فخرجنا  
إلى الجبل، ودعنا أمك كأنها آخر رحلة، وقلنا لو أن  
جدك بيننا ما استعصى عليه مسٌ ولا داء، لكنه القدر

صعدنا إلى الشيخ «حسيب الجبل»، ترافقنا الذئاب.  
وبدا جسدُ أبيك ضامرًا، على غير ما اعتدناه من قوَّةٍ  
وعافية، حملناه بالشراكة وقطعنا المدقَّ الطالع إلى بيت  
الشيخ، كان «المسرى» على سنَّ الجبل، خرج الشيخ  
ودلنا إليه بمشعل، واستقبلنا يترحم على «الطواف»  
الكبير، شغل بأجراسٍ معلقة في رقبته وهو يلوم  
بالمشعل يُصرف الذئاب، ضمَّ أباك بين ذراعيه ودخل  
به، تبعناه، سقاه خليطًا ساخنًا من الأعشاب والدَّوم  
فاستدفا، طلب منا أن نأتيه بفرعٍ ناتئ من شجرة  
الجميز الحارسة، وزعزعة قصب، وحزمة حلفاء، قال:  
اتركوه ساقراً عليه.

هبطنا، كانت الشمس راحت تغيب، استغرقنا وقتًا  
طويلاً حتى بلغنا شجرة الجميز، لم يكن بها فرعٌ

١٠. أو عطب، ولما حاولنا أن نقتطع منها فرعاً صغيراً  
 ١١. سنا بها تزوم، تكالبث على فرعها، صفعتني به،  
 ١٢. أن وجهي انجرح وفصد دمًا، وشعرنا أن الشجرة  
 ١٣. تماتت دون فرعها، بل صارت لها ملامح تكثر،  
 ١٤. سميت سخونة جذعها وجوهنا، كأن غضبًا عارمًا  
 ١٥. أهداه، في الوقت الذي تيسر لنا أن نجلب زعزوعة  
 ١٦. السب وحزمًا من الحلفاء، وعاودنا تلبية طلب الشيخ،  
 ١٧. استطعنا أن ننتزع فرعًا على عنوة، ثم ونحن نقص  
 ١٨. أريق هرولةً إلى الجبل، بدت تضيق على أقدامنا،  
 ١٩. إذا بلغنا الجبل عيد بنا إلى أول الطريق، مثل الذي  
 ٢٠. دور في دائرة مقفلة، وإذا بالشيخ يطير إلينا من فوق  
 ٢١. العبل، وكان وهو يهبط يصيح، ويهبط على عجل، ثم  
 ٢٢. استوضحنا صياحه، وفسرناه، لم نلتفت للوراء، بل  
 ٢٣. سارت الهرولة فرارًا، كان الشيخ يصيح: الأفعى من  
 ٢٤. لفكم!

## المسحور

لم أستَهْجِن الأمر، بل توافقْتُ معه.

كانَ العالم طيح به، وظللتُ وحدي، كأنَّ قيامَةَ البشر  
أبادتهم، وتركْتُ مِنْ بَعْد.

لستُ أعرف كيف أوتي بي على هذه الهيئة ولا كيف  
بُعِثت بمثل هذه الحراشِف والزَّيم؟ لكنَّهُ إحساسٌ  
فريد.

سَجِيثٌ فِي عَمَقِ النَّهْرِ، أَغْلِقْ عَلَيَّ، لَا أُدْرِي لِأَيَّامٍ  
 أَمْ لَأَعْوَامٍ! فَجَاءَهُ تَقَلُّبٌ بِي بَطْنُ النَّهْرِ، امْتَلَأْتُ بِالْمَاءِ  
 ١٧٠، فَخَافَ قُرْبَهُ لِأَخْرِهَا، فَوَجَدْتَنِي أَطْفُو، ثُمَّ اسْتَحَالَ النَّهْرُ  
 ١٨٠، وَقَا كَالْبَرْزَخِ، وَصَارَ ثَمَّةَ فَرْقَانٍ بَيْنَ مُوجِبِينَ مِنَ الْمَاءِ،  
 ١٩٠، صَعَدْتُ عَلَى بَطْنِهِ، وَمَوْجٌ يَنْدَلِقُ عَلَى الضَّفَّةِ الْغَرْبِيَّةِ،  
 ٢٠٠، وَاعْرَى عَلَى الشَّرْقِيَّةِ، كَانَتْ سَاقَايَ تَرْتَفِعَانِ بِي، يَتَسَّعُ  
 ٢١٠، لِي قَاعُ النَّهْرِ، أَثْبَتَ قَدَمِي فِيهِ، وَأَتَطَاوَلُ مِثْلَ نَافُورَةٍ  
 ٢٢٠، نَائِيَّةٍ، وَأَسِيلٌ عَلَى جَانِبِي النَّهْرِ، كَالَّذِي خَرَجَ مِنْ  
 ٢٣٠، مَرَاةٍ لَا يُمَكِّنُ الظَّنُّ فِي حَقِيقَتِهَا.

إِنَّ هَذِهِ الرَّحْلَةَ الْمُتَبَسِّةَ، مِنْ عَمَقِ النَّهْرِ، مِنْ عَالَمٍ  
 ٢٤٠، غَلِيٍّ، إِلَى قِيَامٍ، بَدَتْ كَطَرْفَةٍ بِصَرٍّ، لَمْ أَشْعُرْ بِزَمَنِ وَلَا  
 ٢٥٠، أَمْدَانِ، بَلْ كُلَّمَا صَعَدْتُ رَحْتَ ارْتَطَمَ بِالْأَلْغَازِ، أَصْطَدَمَ  
 ٢٦٠، بِدَهْشَةٍ بَعْدَ دَهْشَةٍ، أَجُوسُ فِي الْأَنْحَاءِ، لَا يَوْجِدُ غَيْرِي  
 ٢٧٠، يَحْتَضِنُ بَيْنَ ذِرَاعِيهِ كُلِّ التَّفَاصِيلِ، كَأَنِّي سَمَاءٌ كُبْرَى، كَأَنِّي  
 ٢٨٠، أَدْلُ الْعَالَمِ أَطْرَافَ وَأَنَا قَلْبٌ نَابِضٌ، هَامِشٌ وَأَنَا مَتْنٌ.

فِي رَحْلَتِي إِلَى أَعْلَى حَاوِطَنِي صَغَارٌ يَرْتَدُونَ جِلْدَ  
 ٢٩٠، السَّمَكِ، وَجُوهُهُمْ بِلَا عَيُونٍ، أَقْوَاهُمْ مُسْتَطِيلَةٌ،  
 ٣٠٠، تَزَاحِمُوا حَوْلِي، أَرْغَمُونِي عَلَى الصُّعُودِ إِلَى حَيْثُ يَرِيدُونَ،  
 ٣١٠، تَعَثَّرْتُ بَيْنَ أَيَْادِيهِمْ، ظَلُّوا يَجْذُبُونَنِي وَيُدْفَعُونَنِي لِفَوْقِ،  
 ٣٢٠، ثُمَّ انْطَبَقَ قَاعُ النَّهْرِ كَمَا انْشَقَّ، وَاخْتَفَى الصَّغَارُ، فِيمَا  
 ٣٣٠، كُنْتُ هُنَاكَ، يَمْتَلَأُ بِي فِرَاقُ الْأَرْضِ.

ما أطرّف البعث! تخيلتني عُلقْتُ في العالم السَّلمِ  
بلا قيام، أهذه هي خبيثتي؟! ربّما.

وصلتُ بضخامتي إلى حواف السَّماءِ، وهطلتُ على  
البيوتِ رغماً عني، كإعصارٍ جبّارٍ، السَّحابِ عبرتي، أمةٌ لا  
بي، وصرْتُ ريحاً، عصفاءً، زفراقي صوتُ الرّعدِ، عينايا  
تطقان برقاً، والنّاس تحتي يهرولون فزعاً، يحاولون  
النّجاةً، لا يعرفون أنّي لا أقصد بغياً، مثلي مثلهم، مُندهش  
فقط ممّا آل إليه مصيري، ورأيثُ -بينما تتساقط من  
جسدي الأسماك- انعكاسي على صفحة السَّماءِ، أيُّ إرادةٍ  
تلك حوّلتني؟! أهي إرادةُ القُدّامى؟! أهي إرادةُ السَّحرةِ  
الأسطورية؟! لا أعرف، كنتُ أقطع الشّوارعَ والدّروبَ  
والغيطان فيغرق الماءُ كلَّ شيءٍ، كأني المياها الأزليّة التي  
تنحدر من عبّ السَّماءِ ليتشكّل البشر، كأني طوفانٌ  
سيعمّ أرضَ الله، وسيغمر الضّحاري والبحور والحقول  
والوديان، ولن تكون نجاةً إلّا لمن اتّبعني، أو هكذا  
يُمكن أن تأتي التّصوّرات، فيما بدا أنّي قد اكتسح كلّ ما  
يقف في طريقي، وكلّ ما يعوق انفلاقي الخرافي.

أجل، لن أخطو على هذه الأرض ثانيةً، بل سأطير،  
سأتحزّر، سأنبعث وأتفجّر وأتحول إلى لونٍ لم يُكتشف،  
بغد، سادوم أسطوريّة، لعنة، بعثاً ليس كمثله بعث،  
خرافةٌ لم تُختبر، سادّيب، أخيراً، بروز الزمن، ساستمرُّ  
على هيئة السَّحابِ، سأسافر بحثاً عن وطنٍ ملائم لي



اهطل مثل ماءٍ بطعم الذنوب التي تستوجب الغفران،  
.. أرف، كما ترف العين لحظة نشوة، سارف وأضحك،  
السعادة في مهدها.

سأنسلخ من اسمي القديم، صار «سالم» أثرًا  
.. رعان ما ستفرمه الذاكرة الجدلية، بلا رجعة، لتخلق  
الأسطورة.

هيا، قدّموا قرابينكم، اصنعوا الأساطير، احكوني،  
«نقوا بعثي، حالما أتبتن هذا السر الذي لفظني من  
.. سوف الأرض إليكم، وليس السر ببعيد.

## الطَّوَّاف

«والتي يتبركون بها طاردتنا يا ولدي، صرخ الشيخ  
«حسيب الجبل»: الأفعى من خلفكم! كان يحذّرنا، لم  
نلتفت، عدونا، والظلام يلف أعيننا، لم نر «حسيب  
الجبل» فيما نركض، بدا اختفى فجأة كما ظهر، بل  
ولعله لم يترك سنّ الجبل، لم يزل هناك، في بيته، ونحن  
ثلاثة رجالٍ وخطيئة، لماذا فكّرنا في المساس ببدن  
الشجرة رغم معرفتنا ببركتيها؟! إنها الخطيئة التي  
ستبدّل معها الحال.

ركضنا واشتعلت وراءنا الطريق، كانت الشجرة قد  
 تحولت إلى أفعى تزحف بسرعة تلاحقنا، ثم وبينما  
 استدير برأسي للوراء، إذ كاد الفضول يصرعني، وجدت  
 على هيئة كالتصاوير التي حفرها أجدادنا على  
 جدرانهم، كانت رأسها قد تعلقت، وصارت بحجم  
 النمل، ولها لسان مشقوق يسعى خلفنا، تبخ من فمها  
 النار، وتصرخ كالف امرأة محزونة، صارت عملاقة يا  
 «طواف»، لها ساقان كالسحلية، وجناحان امتدا على  
 جانبي الوادي ففرشاه بالحمم، وبدت طريقنا بلا نهاية  
 آمنة، بل ظننا أن قضى أمرنا، لكننا لم نسلم، أخذنا  
 يجري ونجري، قبضنا على أذيال جلابينا بين أسناننا،  
 ومن حولنا جمر ينفجر، وصخور تتهاوى، وصراخها  
 كالزئير في عمق الرأس، مثل الطرق على صفائح  
 نحاس مجوفة، ولما بلغنا أول المدق الطالع إلى بيت  
 الشيخ، بدت ينست، استدرنا ننظر إلى أسفل، كانت  
 واقفة وقد لمت جناحيها عليها، ولمحنا ابتسامتها، كأنما  
 لم تبتغ أذية، فقط كانت تهددنا ساخرة من خوفنا،  
 وتروعننا منذرة ليس أكثر، ما كانت تريد أن تهلكنا،  
 وإلا فعلت، حيث كان باستطاعتها، وهي الجبارة، أن  
 تفترسنا في غمضة عين.

أوما الشيخ برأسه:

- الشر!

جلسنا نتنفس بصعوبة، تناول منا حزم الحلفاء.  
وزعازيع القصب وفرع الملعونة، أوقد نارًا، وضع عليها  
قِدرة فخار، ثم فركهم وصحنهم ورماهم في جوف  
القدرة، وملأها بالماء وغطاها.

جلس قبالتنا، قال:

- أخشى ألا يهجع الشرّ ثانيةً، طالما استيقظ في  
مدينتنا!

- وأي شر!

- «الطّواف» الكبير وحده كان قادرًا على ردِّه.

- رحمه الله.

- بل أبقاه.

نظرنا إلى بعضنا البعض في حيرة، لكنّه ولى عنّا  
يقلب خلطته، مضت تفور، وفاحت رائحتها، وكان  
أبوك راقداً يتدثر بالألحفة، ويئن بصوتٍ واهنٍ، وبدت  
عيناه خابيتين، فيما كان الشيخ يتلو على الخلطة، كأنّها  
يعوذها، ولما تلزج قوامها وتماسك، أبعد القدرة من  
فوق النار، وصبّها في طبقٍ فخاري عميق، ولم يزل يتلو.

مضت دقائق قليلة، برد الخليط.

سَدُّوا أَحَاكِم.

قال الشَّيْخ، فرفعنا أباكَ بالقدرِ الذي يستطيع أن  
، «تشف الخلطة، وبملعقةٍ ناوله الشَّيْخ، وراح يتأسَّى:

- مالك يا ابن المبروك؟!!

قلتُ:

- الجنّ.

- كلا.. شرٌّ أكبر.

ولمّا اطمئنَّ أنَّ أباكَ جرَّع ما يكفيه، التفتْ نحونا  
بفسَّر:

- الجنُّ يُمكن التفاهم معهم بل وإحراقهم والسَّيطرة  
عليهم، الذي يسكنه سلطته أعظم، سلطته على الجنِّ  
والبشرِ، شرٌّ مقيمٌ لا يريد الكشف عن نفسه، ينتظر أن  
تستقيم له الأمور، ويكتمل طقسُه.

- ومنتظر نحن أن يموت أخونا!

- الموتُ أمنيَّةٌ حاملة.

- بالله عليك يا شيخ حدِّثنا بما نفهم!

- أنتظر أنا أيضًا...

كان وجه أبيك ينزّ العرق، بقماشية مسح الشيخ،  
واكمل:

- أنتظر أن يتجسّد هذا الشرّ، أن يصبح مرثيًا، إن  
مدينتنا؛ بكلّ مشايخها وأوليائها وصالحيها، لن تصبح  
قادرةً على محاربتّه، بل ستصبح قوّته هائلة، لا قوّة  
مثلها، رأيتُ بالأمس البعيد شذرات من هذا الشرّ ولم  
أرد تصديقها، قلْتُ لعلّي خفّفتُ، إنّما يمرّ الوقت والشرّ  
يستحوذ على الأشياء، يسكنها فيتمّم عبر حيواتها ممثله،  
ووقت ينطلق ستصبح المعركة على أشدها، أخشى فقط  
أن أموت قبلما أشهد هذه المعركة.

- معركة! أخونا يسكنه هذا الشرّ يا شيخ؟! مجرد  
شيء من الأشياء التي استحوذ عليها! كيف لك أن  
تعرف كلّ هذا؟!

صمت، مدّ يده يقول:

- بيدي هذه أستطيع أن أرفع جبلًا لولا أخشى الله..

ثمّ شخص ببصره إلى سفح الجبل، أشار بإصبعه:

- أنتم لا تعرفون شيئًا، لا أحد يعرف، لا أحد.

استشرف، هذه الشجرة...

وزفر:

أحد جنود الشر.

- لكنّها شجرةً مباركةً كنّا نتداوى بها!

لاحت على شفّتيه ابتسامَةٌ متحرّرة:

- يا لخيبتِكُم! أنتم غافلون يا ولدي..».

## المسحور

كانتْ للقدَامَى سُلْطَةً هائلةً على الحروف،  
يستخدمون الكلمات بطلاسمها، يُدركون كلَّ أسرارها،  
بلْ ويحتجزون القوَى الخفية بين الإشارات والنقوش  
والرموز.

استمدَّ بعضًا من هذه السُّلطة، لمْ أعد حبيسَ  
الرموزِ، لقدْ استنهِضْتُ، أستطيع الآن أن أقرأ جميع  
الإشارات المستعصية، أستطيع أنْ أمرَ بالريح على  
الجدران فاستلهم المصائرَ، أربط الماضي بالغيب.



واسوف تسكنني الكلمات والحروف، سوف اصنع تميمة  
 اجازية، لن يجوز أن يملك قوتها إلا طائعٌ مختار، أجل،  
 سوف تتعزى لي الأسرار، كأن بي طاقة احتياطية كانت  
 مخزنة لموعيدٍ محدد، وها هي الطاقة أثرت معلنة  
 من نفسها، طاقة سأوجهها لتحرك لي الأشياء، توحى لها  
 بأوامري، مجبرة.

استطيع الآن أن أتشكل وفق هواي، أصبح موجاً  
 دافق في مجرى السماء، يحجب عنهم الشمس، أو  
 لئلا ينهمر على الأراضي فيدهسها، وفكرت: هل يمكن  
 أن امتحن طاقتي؛ بشكلٍ أوسع؟!

## الطَّوَّاف

أرنب ينبش الأرض، يشمّم، ثمّ فجوة تنفتح، تبتلع  
ولا يصبح له أثر!

أمعاء الأرض تمور، تثب من بطنها، من بين التراب،  
فأتقرّص، أحاول أن أعثر على الأرنب، بلا جدوى، ها  
جُننتُ؟!

التمثالان يتأملان الفراغ الشاسع الذي يحاصر البدن  
وأنا أدنو من الفجوة الساخنة التي تبثُّ بخارًا، كأنها

«مَزَحْ شَقَّ بَدَنَ الْأَرْضِ».

الزَّيْحُ هادئة، وعظمتُ تبرز من تحت التُّراب، على  
«مَذْرَ أضع عليها أناقلي، كانتُ ساخنةً أيضًا، أهَي  
«مومياء؟! لا أعرف! أهَي بقايا مَيِّتٍ دُفِنَ حديثًا؟! لا  
أعرف! خَفْتُ أَنْ أَسحبها، كي لا يباغتني طارئٌ أو سحر،  
لكن: أَلَمْ يَحْصَنِي أَبَواي مِنَ السَّحَرِ؟!

فيما قليل، تبدو الأرض كعجينةٍ طينيةٍ هشةٍ بدأت  
اللفظ أحشاءها، تتزايد الفجوات، ومن كل فجوةٍ يقبُ  
إِلَاءٌ منبعِجٌ من النَّحاس، تصنع الفجوات دائرةً حولي،  
ولما أصبحت الفجوات أربَعًا، توقَّفَ تَقَلُّبُ الْأَرْضِ.

أَتناول الأواني الأربع من قلبِ الحفائرِ، ولا أكاد ألتقط  
أنفاسي، أهو ثراءٌ على غفلةٍ؟!

أفتح الأواني، ثم أدرك أنها أواني «كانوبية»<sup>(٢٠)</sup>، كانتُ  
مصنوعةً على رؤوس أبناءِ «حورس»<sup>(٢١)</sup> الأربعة، أفحص  
ما بداخلها، في كل أنيةٍ كانتُ توايبت صغيرة الحجم،  
بعضُها من مرمرٍ وبعضُها من حجرٍ جيريٍّ، وفي قاعِ  
الأواني أقمشةٌ من خيش، كانتُ ملفوفةً، فككتُها، فإذا  
بمُزَعٍ أعضاءٍ بشريةٍ.

دُرْتُ ببصري حولي، كانتُ الطَّريقُ خاليةً، خلعتُ  
جلبائي، خَبَأْتُ الأواني فيه، وقبل أن أستعيد أنفاسي،

كانت العظمى قد راحت تبرز أكثر فأكثر، يدٌ عني، أم  
برزت يدٌ يُسرى، تحمل مرآةً ببروازٍ مذهّبٍ، رفساً،  
التراب بقدمي مبتعداً، إنها مومياء، ومن مسافةٍ أم  
أخذت أراقبها، كانت المومياء ملفوفةً بالكِتان، لم ي  
منها غير عينيها، اللتين كانتا تمسّطان المحيط حولها،  
ثم توقفتا عليّ.

بدأت المومياء في النهوض على تؤدةٍ، ملمتُ جلبان  
وقلّت ألوذ بالهرب، لكنّ قوّةً أعاقتني، شدّتي للوراء،  
فسقطتُ على ظهري، اعتدلْتُ نصفَ اعتداليةٍ، لم أشه  
أمراً مماثلاً من قبل، وإن شهدت بإرادتي كلّ ما يُمكن  
للأحلام أن تصنعه من عجائبٍ، أيجوز أن تكون أحلام  
القدمية مع جذّي حقائق؟! أيجوز أني عبرت المسافة  
بين عالمين؟!

كلّا، كلّ ما تخيلته مع جذّي محض أوهام، كلّما قالوا  
حكايةً سرح خيالي، كلّما حلّت بركته في سحري أو طقس  
تركّض نفسي للتصوّرات، كنتُ طفلاً وقتذاك، والأحلام  
شريعة الأطفال.

المومياء تحدجني مرّةً، ثمّ تستدير تطالع مرآتها  
مرّةً، وأنا مقيّدٌ في مكاني، قدماي مكلبشتان، صرخ  
بفزع:

- بسم الله الرحمن الرحيم.

غير أنها بدت تكثر، كأنما تستنكر صرفها، أو  
أولتي في الإفلات من قيد سحرها.

الفرارُ يتعسر عليّ، والعالمُ ليلاً، والناس انقطعوا عن  
المرور، لن يسمعي أحد، لن ينقذي أحد.

أرمي الجلباب بمقتنياته وأجاهد أن تتحرك قدماي،  
بئس، لا يريدان التحرك، كأنهما دُقا في الأرض بمسمارين،  
سفل يداي، أرتجف، يقشعر بدني والمومياء تستكمل  
مروجها من جوف الحفرة، اتسعت عيناوي وهي  
أخمش الأرض بعظام يديها تقترب مني، بسملت  
وعوذت وشهدت، سُدّي، لا تتوقف، ببطء تدنو، وتدنو،  
ولم تزل تنظر في مرآتها، كأنها اطمأنت لعدم جدوى  
منازعتي، وأني باقي هنا بأمرها لن يمكنني الهرب.

تتقلص عضلات وجهي، فيما صارت على مسافة ذراع  
منه، واشتممت رائحة نقاذة تخرج من فيها، وحاولت  
الصراخ، بيأس، لكن صوتي كان مبحوحاً.

كل ما استطعت هو أن أتناول حجراً، وبقوة خائفي  
القيتها به، أصاب المرأة، فجاءة فزعث عيناها، وشبّت،  
والمرأة تتحطم، صرخت، وبينما تصرخ، سمعت أصوات  
رجال يصرخون، كأن عشرة رجال يصرخون، سمعت  
أصواتاً متداخلة، أصواتاً جشةً، وأصواتاً ناعمةً، كلها  
تؤذي نغمة وحيدة، نغمة رعي، والمرأة تصير فتاةً،

تتساقط أرضاً، فيما كانت المومياؤ، بدورها، تتساقط  
تتهشم، عظمة عظمة، وتتحوّل عظامها إلى غبارٍ أبيض.  
رقيق، كالذقيق المصحون، يطير مع الريح، يطير بعيداً

## المسحور

أمارس جميع الأسرار الطقسية، أشرف على العوالم  
الثلاثة: السماوي والذنيوي والسفلي.

بالأمس، كنتم تقدّمون الغزلان والأبقار والماعز  
والدجاج والأوز والثيران قربانًا، لكنكم، اليوم، ستقدّمون،  
جميعكم، أضحية بشرية.

آن لي أن أختبر طاقتي على سعة..

أَتَفَكُّكَ فِي السَّمَاءِ، أَهْوَمَ سَحَابًا وَمَاءً وَرِيحًا، أَقْطَبَ  
الْوُدَيَانَ وَالنَّيْلَ وَالْمُعَابِدَ، أَفَرِشَ بِي الْآفَاقَ، أَجَاوَزَ  
الْأَرَاضِي تَحْتِي، أَتَقَاطِرَ قَطْرَةً قَطْرَةً فَوْقَ هَضْبَةٍ بِوَادِي  
الْمُلُوكِ، وَادِي الْمَوْتِ، وَادِي الْقُبُورِ وَالْجَثَامِينَ وَالتَّوَابِيَتِ،  
أَنْجَذِبُ إِلَى بَعْضِي الْبَعْضَ، أَسْتَجْمَعُ قَوَامِي الْمَتَبَخَّرَ، أَسِيلَ  
مَنْيَ إِلَيَّ، أَهْدِرُ، أَصْنَعُ بَحِيرَةً مَنْيَ عَلَى رَأْسِ الْهَضْبَةِ،  
وَالآنَ، الْقَرَارُ لِي.

بِسُرْعَةٍ أَنْحَدِرُ، أَنْحَدِرُ طَائِشًا، أَكُونُ سَيْلًا يَكْتَسِحُ،  
يَلْبُلُ الصَّخُورَ، يَذْلُهَا، يَفْتَتِهَا، أَدْبَبَ كُلَّ مَا يَقِفُ لِي  
طَرِيقِي، أَخْضِعُهُ، أَجْعَلُهُ جُزْءًا مِنْ قَوَامِي.

أَهْبِطُ إِلَيْهِمْ سَيْلًا عَاصِفًا، فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ، بِيُوتِهِمْ،  
أَفِيضُ، أَعْرِفُهُمْ مَعْنَى السَّلْطَةِ الْقَدْرِيَّةِ مِنْ جَدِيدٍ،  
أَمَارِسُ عَلَيْهِمْ اخْتِبَارِي الْقُدْسِيَّ، أَهْبِطُ مِنْ عَلَى الْهَضْبَةِ،  
وَلَا شَيْءَ يُوَقِّفُنِي.

أَقْتَلَعُ الْأَشْجَارَ، الزَّرُوعَ، إِنَّهَا الْقُدْرَةُ، الْحَكْمَةُ، الْمَعْرِفَةُ،  
الَّتِي جُزِيتَ بِهَا عَلَى صَبْرِي.

يَتَطَوَّحُونَ بِدَاخِلِي، تَدُورُ مَعَهُمْ بِيُوتِهِمْ، يَطْوِفُونَ  
مَعِي فِي الْأَعَالِي، أَسْتَلِبُ أُرُوَاخَهُمْ، رُوحًا بَغْدَ رُوحٍ،  
يَفْطَسُونَ مِنْ قُوَّتِي، تَرْكَعُ الْأَشْيَاءُ، الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا وَاطْنَةَ،  
صَاغِرَةً، لَا يَعْرِفُونَ كَيْفَ جَثَّتُهُمْ وَلَا كَيْفَ بُعِثَتْ إِلَيْهِمْ  
كَأَنِّي آخِرُ مَسْعَاهُمْ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ الْبَائِدَةِ.



أضَمَّ قوامي، أعجنه وأفرطه، أضربهم، يصبحون  
هوامش، كائنات نافقة بقدرتي.

أهيج أكثر، تتوحد مشاعري والدّمار، هذا إن كانت لي  
مشاعر، أفسخ البيوت، الجبال، أمزّع أجسادهم، الرّحمة  
لا معنَى لها، الرّحمة لفظة جدليّة، الشرُّ هو الرّحمة،  
أو يعرفون!

أقلب الأرض، أصفعها، أستخرج كلّ خبيثة استعصت  
على بشرٍ، وأبذّها كأنّ لم تكن، أيُّ حارسٍ يُمكن أن  
يحرسها الآن؟! أيُّ ماردٍ يُمكن له التّسلّط؟!

جوهر الفوضى، معنَى الاستباحة.

أملك ما بين السّماء والأرض.

أدركت كلّ المعاني.

## الطَّوَّاف

في اللَّحْظَةِ التي تُطَعَن فيها عِظَامُ المومِئَاءِ، كمسحوقٍ،  
بشكلٍ قَدْرِيٍّ، فتذروها الزِّيَاحُ، تنفتح بَوَابَةٌ فيما بين  
التمثالين، كانتْ بَوَابَةٌ من ضوئٍ باهرٍ، تتألق حوافُّها  
بومضاتٍ كالألماسِ، بينما تتحرَّر ساقاي من قيدِ السَّحَرِ.

كَأَنَّ البَوَابَةَ الشَّمْسُ، كَأَنَّ اللَّيْلَ صارَ نَهَارًا، كَأَنَّ العالمَ  
برمقته يُعاد بناؤه مجدِّدًا.

أُسْتَدْعَى، ليس بيني وبين البَوَابَةِ إِلَّا مسافةُ قَفْزَةٍ.

لمرة واحدة، أصبح هناك، فيما خلف المعقول، أرض لم  
ألمأ قبلاً، أو في سطوة الخيال، ألم تُولد كلّ مباحج حياتي  
ن الخيال؟ ما الذي يعطلني إذن؟ أم أخاف؟! أم  
الموت؟ مات جدّي، ومن بعده مات أبي، ليس الموت  
يعيد عني.

أقوم، ببطء أدنو من البوابة، ترعش، كأن بها طاقة  
لم يستنفدِها تاريخ، أدنو كأني ممغنط، وحينما أدنو،  
نهض الثمّالان، تطقطع قاعدتهما، يشقان قلب  
السّماء، ينحني كلاهما، يمدّان لي أياديهما، يكتسب  
جسدهما لونَ البشر، يُكتسب بالجلد، ينبض قلباهما،  
أسمع دقاتهما، ينحنيان، ويُفسّحان لي، وهما يتباعدان،  
طريقاً.

من فوق رأسي تسبح مركبٌ تلج إلى البوابة، يقف  
فوقها عملاق مجنّح، تتبّعها كباش وأطياف ظلاليّة  
رماديّة، ندنو معاً من البوابة.

أدنو، تمسّ قدمي شرارةً، وكلّما دلفتُ، تبدّل جسمي  
وتألّق، كأني هيكل تمثال يُصبّ بالذهب.

وحينما يصبح جسمي بكامله ذهبيّاً، وأجاوز بوابة  
هذا العالم إلى الدّاخل، أستدير، تنغلق البوابة، وتصير  
خلفي صحراء، رمالٌ ممتدّة بلا نهاية، لا يساورني قلق  
ولا خوف، فقط الشّعور بالراحة، بالتحرّر.

الآن أرى، فيما لا يُرى إلا مكشوفٍ لها، أو عابرٍ إلى قدر  
 سماويٍّ، مسافةً من ضوءٍ باهرٍ. كنتُ في أوّل طريق كنقطة  
 بدءٍ، ليس قبلها ولا بعدها معالمٌ ولا أشياء، هِمَّتُ وراءِ  
 النورِ، لا زمنَ ولا مكانَ ولا رجوعَ ولا وطنَ سوى النورِ،  
 هِمَّتُ كأني مثل دخانٍ رقراقٍ شفافٍ يسري في الأجواءِ  
 بإرادةٍ مُطلّقةٍ، من حولي أطيافٌ لا يُمكن تحديدُ ملامحها،  
 بالأحرى كانت ملامعها غائضةً في أديم الضياء، كلّها تولي  
 وجوهها المهزوزة كثافةً غيمٍ شطرَ البريق، تلوح بأيديها  
 أن اذهب، امض، لا تعدّ إلا ومعك الخلاص.

تصلي، من اتجاهات متباينة، أصوات ترانيم،  
 كاستجداء غفرانٍ، كالهمس على خشيةٍ، لكنّ النورَ  
 يغمرني، وفي المدى قبةٌ معبدٍ، رغبم الضبابِ، رغم غشاوةِ  
 البصرِ، تُهيئ لي نفسَها، فأخطو نحوها وفي فؤادي  
 طمأنينةٌ، فيما تتفسخ، كلما خطوئ، أفكاري عن العالمِ،  
 أفكاري القديمة، أخطو على شوقٍ، وأتجرّد من سائرِ  
 التساؤلات، كما لو أنّي إجابةٌ وافيةٌ لكلّ المعاني.

روحي تجلجل وأنا أقطع الطريق، والنورُ يشعّ من  
 حولي، وحواسي تُزهِف أكثر فأكثر، يسبح في النور، ومن  
 حولي، النورُ مثله كجناح ملاكٍ بلون الإيمان، جليّ  
 كتنزيلٍ أوّلٍ، يلقني النور، يتلقفني من صفوٍ لصفوٍ، ثم  
 يبدو لي وجهٌ جذبي مخملياً كازلٍ يكر، أصبح بجوارحي،  
 بلا صوتٍ:

- جَدِّي اقْتَفِي أَثْرَكَ.

- لَا تَقْتَفِ أَثْرِي، بَلْ اقْتَفِ السَّرَّ.

تَوَعَّلْ حَوَاسِي فِي الدَّهْشَةِ، هِيَ دَهْشَةُ أَوَّلِي، وَفِدَّةُ،  
كِنْبُوعِ نَادِرِ الْعَذُوبَةِ، فَرِيدَةُ فِي تَمَامِهَا، تَسْكِبُ عَلَى  
خِيَالِي وَدَاعَةً، أَطْمِئْنُ كَأَنِّي بَاقٍ عَلَى عَهْدٍ مُقَدَّسٍ، وَفِي  
الْأَفَاقِ اسْتِدْعَاءٌ، كُنْ، سَأَكُونُ، كُنْ، كَكُلِّ أَمَلٍ مُسْتَعَادٍ.

كَذَبَابَاتِ الْمَلَمِّ مِنْ فُضَاءِ النُّورِ لِاتِّجْمَعِ وَأَهْبِطَ فَوْقَ  
الرَّمْلِ ثَانِيَةً.

سَمَاءُ هَذَا الْعَالَمِ بِلَوْنٍ بَرْتَقَالِي، أَطَالَعَهَا بَعِينِي،  
وَأَمَامِي يَصْطَفِ خَطَّانٌ مِنْ نِسَاءٍ يَرْتَدِينَ عِبَاءَاتِ  
سُودَاءَ، أَمَامَ كُلِّ وَاحِدَةٍ لَوْحٌ حَجَرِيٌّ تَنْقُشُ عَلَيْهِ رَسْمًا،  
كُلُّهُنَّ وَاقِفَاتٍ فِي صَفَّيْنِ مُتَقَابِلَيْنِ، لَا يَنْظُرْنَ لِي، يُبَاشِرْنَ  
نَقُوشَهُنَّ، وَجُوهَهُنَّ كَانَتْ مَلْفُوفَةً بِطُرْحٍ سُودَاءَ أَيْضًا.

أَتَقَدَّمُ نَحْوَهُنَّ، أَمُرُ فِي الطَّرِيقِ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ، أَنْظُرَ إِلَى  
الْأَسْفَلِ، قُبُورٌ مُحْفُورَةٌ، قُبُورٌ فِيهَا جِثَامِينَ، وَقُبُورٌ تَنْتَظِرُ  
رَوَادَهَا، أَمَامَ كُلِّ امْرَأَةٍ قَبْرٌ، مَفْتُوحٌ، رَفَعْتُ بَصْرِي إِلَى  
الْأُلُوحِ، كَانَتْ النِّسْوَةُ يَكْتَبْنَ أَعْمَالَهُنَّ عَلَى يَسْجَلِنَهَا عَلَى  
الْأُلُوحِ، بِالْأَزَامِيلِ وَالْمَسَامِيرِ، فَوْقَهُنَّ تَرْفُرُ «مَاعَت»<sup>(٢٣)</sup>  
وَهِيَ تَسْطُرُ بَرِيشَتَهَا أَوْرَاقًا.

صَوْتُ رِيحٍ يَصْمُ الْآذَانَ، لَكِنَّهَا غَيْرَ مُحَسَّوسَةٍ، كَانَ  
الْجَوُّ صَافِيًا، مَشْمُسًا بِلَوْنٍ أَصْفَرٍ، كَأَنَّهَا الرِّيحُ تَهْمَسُ  
بِأَسْرَارٍ، وَتَخْتَبِئُ خَلْفَ حُدُودِ الْعَقْلِ.

خَلْفَ النُّسُوءِ جُمُوعٌ مُحْتَجِزَةٌ، كَأَنَّهُمْ فِي جَنَازَةٍ.

الصُّرَاخُ، النَّوَاحُ، الْفَزَعُ.

أَطْفَالٌ يَحَاوِلُونَ الْفِرَارَ مِنْ أَيْدِي آبَائِهِمْ لِيَدْخُلُوا  
بَطُونَ الْقُبُورِ الْمُحْفُورَةِ.

يَخْمِشُ الْأَطْفَالُ سَوَاعِدَ آبَائِهِمْ، يَخْمَشُونَهَا بِأَظْفَارِهِمْ،  
يَصِيحُونَ، يَتَنَوَّنُونَ، يُوَدِّدُونَ الْهَرَبَ، يَطُوقُهُمْ آبَاؤُهُمْ،  
تَحَاصِرُهُمْ أُمّهَاتُهُمْ، اللَّوَاتِي يَصْرُخْنَ، فِيمَا يَكَادُ الْأَطْفَالُ  
يَمَزَّقُونَ شَفَاهَهُمْ مِنَ الْعَضِّ، كَأَنَّ الْمَوْتَ سَحَرٌ لَا يَقَاوِمُونَ  
فِتْنَتَهُ، بَدَتْ كُلُّ حَلْظَةٍ عَجْزٍ أَمَامَ سَطْوَةِ الْمَوْتِ، لَحْظَةٌ  
مَصِيرٍ غَرَابِييَّةٍ.

بَدَا الْأَطْفَالُ مَكْتَفِي الْإِرَادَةِ.

يَبْكِي الْآبَاءُ، لَا يَعْرِفُونَ وَسِيلَةً لِنَجَاةِ أَوْطَانِهِمْ، يَنْدَبُونَ،  
يَحَاصِرُونَ فِرَارَ الْأَطْفَالِ، يَلْعَنُونَ الْمَوْتَ بِالدَّمْعِ، فِيمَا  
يَبْدُو لَنْ يَنْصَرِفَ عَنْهُمْ إِلَّا بِأَطْفَالِهِمْ.

الْمَوْتُ يَهْبِطُ مِنْ فَوْقِ، أَرَاهُ جَلِيًّا، بَعْرِضِ السَّمَوَاتِ

والأرض، وجهه مُظلم، ملامحه لا يُمكن لأحد أن يستوضحها، في يده بلطة، ورداؤه كوشائج سوداء.

صوت الموت منغوم على مقاس رؤوس الأطفال، يسمعونه وهو يزوم، يُتلف أترانهم، يجثم على إرادتهم، يشدهم إلى القبور من بين أيادي آبائهم، و«ماعت» تكتب، تدون، ولما تنفتح أفواه القبور عطشى لدم الأطفال، غصبا عن آبائهم، يهرولون إلى الموت، يلتحفهم في ثوبه الذي يبدو كسحابة رمادية حطت أمام الأبصار، سحابة غادرة، يترخم عليهم أبائهم، إنهم هالكون بأمر الموت، ولا جدوى من المنازعة أو محاولات الإنقاذ، أو الحيلولة دون الفناء، كلها عبثية، ليس لهم غير الحزن، الترخم، فلا قوة تجابه الموت، والأطفال يتبعونه صاغرين، يصفقون مع صوته الهامس في آذانهم، يضمون أجسادهم صفوفاً، يشبكون أياديهم، ويسرون إلى لحودهم.

تفتح القبور صدورها للأطفال، ثم تشهقهم، تغطيهم، يختفون، إلى حيث يهبطون للعالم التحتي، وقد بات مصيرهم مقضياً بالنسبة لأولئك الذين يقيمون الجنائز ويطرحون حول كتبة الأعمال، نعم ماتوا، ككل جسد يفتى، إنما هناك، في العالم التحتي؛ قد تقام الشعائر كي يكبر الأطفال، ولئن يزدهرون، على هينات أخرى، يصبح مصير مغاير، ربّما.

تستكين القبورُ بساكنيها الجُدد، وفيما أتقدّم في  
الطريق، تعلو أصواتُ أجراسٍ، ودقّ طبولٍ، وبدا موكبٌ  
في نهايةِ الطريقِ، وزحامٌ سود، ونساء يقفن على  
أجنابِ الموكبِ، وعربة يجرّها حصانان، يجلس فوقها  
رجلٌ بجسدٍ برونزيّ، في يده سوطٌ، وعلى رأسه تاجٌ،  
عرفته على الفور، كان العملاق المجنّح الذي دخل  
معي البوابة.

يشدّ لجام الحصانين فيتباطئان، تتوقّف العربة بغد  
خطواتٍ، يستقبله خادم، يضع كفه تحت قدمه، يهبط،  
يتقدّم إلى أحدهم، فيستدير إليه، يتقدّم أكثر، بابتسامة،  
وهو يصيح:

- أخي.

يحتضنه، واستطيع، رغم زخم المشهد، أن أتبيّن  
ملامحه، وفيما يهتف الرّجل: أخي. أهتف بداخلي: أبي!

أركض نحوه، لم يبدُ أنّه ينتبه لي، أركض، بينما أرى  
أمي أيضًا، وهي تتأبّط ذراع أبي، وممّضيان يصعدان على  
سلام رخاميّة، ومن ورائهما ذو التاج، يحوّطهم حرسٌ،  
وعبيدٌ، وكهنة.

يصدّني حاجزٌ غير مرئي، أقع أرضًا، أحاول العبور  
دوغمًا جدوى، أنهض، أراقب المشهد من خلف عازلٍ



هوائي، كأنه سقط كجدارٍ على خيالي، أسمع جلبَةً في  
الأعلى، أرفع عيني، «ماعت» لم تزل جالسةً على كرسي  
فوق المشهد كله، في يدها ريشتها، ويتحلقها بعضُ  
الحيوانات، تنحني لي برأسها، تزمّ شفيتها، تدعوني  
للضمّت.

كل شيءٍ جرى قديمًا يجري من جديد، يجري أمامي،  
كي أصبح شاهدًا على الوقائع التي فصلتها النصوص.

الجموع يرتدون أكاليل الزهور، والثيجان الخضراء،  
من شرفات المعبد يُنثر ماء الورد، كاهنٌ جهّم يتلو  
شعيرةً من ورقةٍ بردي بصوتٍ جهور، يصفق الجمعُ،  
يتكدّسون، والاحتفال يصخب، و«ماعت» ترفرف في  
الأعلى تدوّن ما يحدث، ولا تتدخل.

## حسيب الجبل

أجل، رقد الجبلُ على سرٍّ عظيمٍ، أبقى عليه في بطنه،  
تقلَّبْتُ عليه الدهور وما باح، تحيَّرتُ لماذا تخيَّرني؟  
لماذا منحني السرُّ؟  
صعدتُ مسلوب الإرادةِ إلى ندهِ  
رباني، كنتُ صغيراً لا أعرف معنى الأسرار، ثمَّ كانَ  
طريقي حُفظتُ في ذاكرةِ عيني، اكتشفتُ مدقاً، طلعتُه،  
ظهر لي كائنٌ خرافي، رأسُه على رأسِ ذنبي، وجسمُه على  
جسمِ رجلٍ مقدود العضلات، كأنَّ به يستدرجني إلى  
السرِّ، يقودني.

لَمْ أَتَخَوَّفْهُ، تَبِعْتَهُ، كَانَتْ عَيْنَاهُ تَضِيئَانِ الْعَتَمَةَ إِلَى  
قِمَّةِ الْجَبَلِ، مَشِيَتْ مِنْ خَلْفِهِ جَسُورًا مَجَازِقًا، صَحْبَتُهُ  
طَمَأَنْتَنِي، بَيْنَمَا ظَلَّ، كُلَّمَا صَعَدْنَا، يَعُوي، يَهْتَزُّ الْجَبَلُ،  
تَرَدَّدَ عَلَيْهِ أَصْوَاتٌ مِنْ وَرَائِهِ، أَصْوَاتٌ شَقَّتْ سَكُونَ  
الْفَرَاغِ، كَأَنَّمَا تَنْبَعَثُ مِنْ قَاعِ بَثْرِ سَحِيقَةٍ، سَلَّمَنِي إِلَى  
أَعْلَى الْجَبَلِ، ثُمَّ اخْتَفَى.

دَرْتُ حَوْلِي بَعِينِي، كَانَتْ رِيحٌ، وَعَتَمَةٌ، لَكِنِّي  
اسْتَبْطَنْتُ مَوْقِعِي فِي هَذَا الْمَلَكُوتِ، وَأَدْرَكْتُ مَا يَنْبَغِي  
فَعَلَهُ.

لَمَلَمْتُ الْحَطَبَ وَالْأَشْخَابَ الْمَتَفَرِّقَةَ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ  
وَأَقَمْتُ بَيْتًا، أَطْلَقُوا عَلَيْهِ «الْمَسْرَى»، وَأَطْلَقْتُ عَلَيْهِ  
«الْمُعْتَكِفَ».

كُنْتُ صَغِيرًا لَكِنِّي بِحِكْمَةٍ مَنَّةِ رَجُلٍ، أَعْرِفُ مَا لَا  
يَعْرِفُونَ، جِئْتُ إِلَى الدُّنْيَا مُبَارَكًا بِالنَّفْحَةِ الْإِلَهِيَّةِ، كَأَنَّ  
اللَّهَ اصْطَفَانِي مِنْذُ الْمَهْدِ؛ هَكَذَا زَعَمُوا.

مَرَرْتُ عَلَى الْأَعْوَامِ تَوَاقًا إِلَى السَّرِّ، وَعَلَى مَشَارِفِ كُلِّ  
حَقْبَةٍ كَانَ الْجَبَلُ يَلْتَحِمُ بِي، يَعْلَمَنِي، يَطْوَعُ لِي سَاكِنِيهِ،  
صَرْتُ، شَيْئًا فُشِيئًا، أَحْكَمُ بَيْنَ الْكَائِنَاتِ وَأَصَاحِبِهَا، وَسَرَى  
بَيْنَنَا فَهْمٌ وَتَوَاصُلٌ، أَخَاطَبُهُمْ وَأَفْهَمُهُمْ، يَحْرُسُونَنِي،  
وَيَنَامُونَ فِي مُعْتَكِفِي، نَتَوَسَّدُ فِرَاشًا وَاحِدًا، إِنَّ أَرْضَ اللَّهِ  
لِلْجَمِيعِ، وَإِذَا مَا هَجَعُوا، تَسَاوَوْا.

معتكفي أشبه بصومعة، لم يكن ثمة ترف فيها، فراش صغير من كليّات متهرئة، وسجّادة للصلاة، وزير ماء، لكنّها كانت مفتوحةً على الأسرار، على الخلاء الشاسع المستوطن سفح الجبل.

جبل المغيب، جبلي، هذا لقبه بين الجبال.

هنا، قديمًا، كانت الآلهة تهبط، تتناحر، تتصارع للظفر به، إنّهُ مقرّ الموثى المبرئين الذين ينعمون، دون غيرهم، بأشعة «رع» الدافئة المقدّسة، إنّهُ جبل التحوّلات، جبل المولد والبعث، جبل الأسرار، إنّهُ المغيب كما لم يكن مغيب يُشبهه.

هنا، على جبلي، كانت مملكة «أوزوريس».

أنتمي إلى هذا الجبل، وعُزلتي فيه لم تُشعري بالوحدة، استتبّ لي مقامًا، واستطعت، بمرور عمري، أن أنشيء فيما بيني وبين أسرارهِ أواصر متينة، بلغت ألفة مُذهلة.

بوابات المعابد الحجريّة ضئيلة أسفل منّي، سنابل القمح تتراقص، تنهامس، الشمس تترّص بالصخر، تلمّعه، فيكاد من شدة اللّمعان يطقّ، كأنّهُ يُسخن على موقد.

تنازعني الأسرارُ في الأيام الأخيرة، أقضي الليل نصف  
يقظ، الزيح تسامر الجبل، والحيوانات تجد لها متسعًا  
للفسحة خارج المعتكف، وفي رأسي يهاتفني صوت، أن  
تهنيا، ثمّة سرّها هنا.

تُرى هل وفّقني الله لطاعته قدّر جهدي؟! هل  
عليّ بذل المزيد من الجهد؟!

خلوت إلى القبلة، دعوت الله أن يعلمني الاسم  
الأعظم، اسمه المائة، لعلّ هو السرّ المبتغى غالب  
الأمر.

بثُّ أكثر من تضرّعي وسؤالي، وبينما أكذ في الابتهاال  
يومًا إذا برقاقة من نور تلوح أمام بصري، كنتُ  
مستغرقًا في الصلّة، فأعرضتُ عن الرقاقة لئلا أنشغل  
بالنظر إليها عن إقبالي إلى الله، وإن كان شغفي قد  
راح ينازعني أن أنهي صلاتي، ولمّا سلّمت عن يمين وعن  
شمال، وما كدتُ أمدّ يدي قابضًا على الرقاقة، حتّى  
تلاشت.

ثمّ ذات نهار، بدأ السرّ ينكشف، كان الجبل يحبس  
الشمس خلف سنّه، وقُدّر لي أن أتبع هاجسًا، تردّد  
همسه بداخلي، التففتُ حول المعتكف، صعدتُ على  
حجارة ناتئة، وفي السفح هناك، كانت البيوت مطمورة  
تحتي في ضباب، وبدا حصار يولد من قلب الجبل، بلونٍ

زاه، حصا ضئيل الحجم، أدوس عليه فيتدحرج إلى أسفل،  
فأنزلق معه، رحث أنتزع قدمي بعسر فيما أصد.

لمحت بطرف عيني فجوة في صدر الجبل على امتداد  
النظر، طلعت أكثر، كانت مسيجة بالصخر، لم أستغرق  
جهدًا في إمالة الصخر عن فم الفجوة، لا شيء يدفعني  
للتردد، لست أخاف مما قد يهني الجبل.

أزيح الصخور، غبار متراكم منذ أزمنة يوج، وبدت  
الحفرة قد أخذت تزفر، كأن أنفاسها ظلت مكتومة  
طيلة هذا التاريخ، سمعت قرقرة، لم أتهيب الخطر،  
دخلت براسي في قلب الفجوة، رأيت طريقًا ممتدة  
إلى أسفل، وسلام حجري تؤدي لبطن الحفرة، هبطت  
معه، كانت الجدران من حولي قد مضت تستنطق،  
تفرز إشارات مضوية، وتنير لي طريقي المفضية إلى  
تحت.

النقوش الباهتة تتلألأ، الخطوط تتلوى على الجدران،  
تتجسد، تتابع من حولي وأنا أهبط، ألتقط أنفاسي  
بصعوبة، يقل مستوى الأكسجين، أرى انعكاس حدقتي  
عيني على الجدران كلما نزلت.

تتسع لي الطريق، ينفرج قلبها عن غرفة مربعة، في  
منتصفها يرقد تابوت، مطلي بالذهب، يدفعني الهاجس  
إلى زحزحة حزامه، كان غطاء التابوت ثقيلًا، بعد دفعة

فاخرى وورب، أقمت بصري مستكشفاً ما بداخله،  
كانت مومياء مسجاة في بطنه، وفوقها لفافة.

دست ساعدي تناولت اللفافة وأنا أرتجف، كانت  
من ورق البردي، فككتها، ثم سرّت في يدي شرارات  
متقطعة، تلويث ووقعت أرضاً، كانت الشرارات تتولد  
من البردية وتطوق من حولي، ومن عند آخر جدار في  
المقبرة راحت شرارات تنبعث أيضاً، كانت تشبه النار،  
وبدت اللوحة الحجرية التي تطلق الشرارات تحيي،  
تتحرك ألوانها، استشعرت شراً، والشرارات ما بين البردية  
واللوحة الحجرية كأنها مغناطيسية، تتبارى، فتنهمر  
ألوان، وأضواء، وراحت الطاقة المتألقة تدور في حلقات  
أسطوانية مفرغة وتلتحم في بعضها، ثم طوقت أطرافى،  
انتزعتني من فوق الأرض، ودارت بي داخل فضاء المقبرة،  
وامتدت كخيوط تدفقت في عيني، في أنفي، فمي، وكلما  
تغذى جسدي بالطاقة انتفخ، فيما كانت بطني تتشقق،  
كأنما يستولد السر مني، وغبت عن الوعي المؤقت  
البشري، واستلهمت وعياً عابراً للأزمنة، والحوادث كانت  
تجري داخل رأسي، كل الحوادث القديمة التي دونت  
على الجدران وفي بطون المقابر، أوحى إليّ، كأي الإجابة.

رحت أدور في الهواء ملفوقاً في الشحنات المتدفقة إلى  
جسدي تخترقه، وأحسست كأن الغرفة تنهد، تنفّس  
طاقةً، عندئذ دوى في أذني صوت كالخبط على أجراس،

كَأَنَّهُ يَنْبَعثُ مِنَ الْمَدْرَجَاتِ الصَّخْرِيَّةِ وَالتَّلَالِ الْبَعِيدَةِ  
مَتَسَلِّلاً مِنْ فَوْهَةِ الْمَقْبَرَةِ إِلَى الدَّاخلِ، يَخْفِقُ الصَّوْتُ  
دَانِيًا مَرَّةً، وَمُبْتَعِدًا مَرَّةً، كَأَنَّمَا تَتَقَلَّبُ أَذْنَايَ فِيهِ.

لَمْ أَشْعُرْ بِالْأَلَمِ، بَلْ شَعَرْتُ بِالتَّدرُّجِ الزَّوْحَانِيِّ، وَجَسَدِي  
يُضَاءُ كَنَبْرَاسٍ مَقْدَسٍ، وَدَوِي الْأَجْرَاسِ يَتَحَوَّلُ إِلَى أَصْوَابٍ  
وَاضِحَةٍ تَدْنَانِي إِلَى أُذُنِي، تَهْمِسُ، تَمْنَحُنِي الْمَعْرِفَةَ الَّتِي لَا  
مَعْرِفَةَ مِثْلَهَا، تَعَلِّمُنِي أَصُولَ الْأَسْرَارِ، وَتَفْكَ لِي طِلَاسَمَ  
الْحُرُوفِ وَالْأَشْيَاءِ، وَكَلَّمَا تَهَامَسْتُ الْأَصْوَاتَ تَأْجَجْتُ  
الْمَعْرِفَةُ فِي ذَهْنِي، طَبَقَاتُ طَبَقَاتٍ، تَكْشِفُ عَنْ نَفْسِهَا،  
تَتْرَاكُمُ بِدَاخِلِي.

ثُمَّ وَإِنْ بَدَتْ الْبَرْدِيَّةُ مَكْتُوبَةً بِالطِّلَاسَمِ، وَرَغْمُ جَهْلِي  
بِمَا وَرَدَ فِيهَا مِنْ كِتَابِيَّةٍ، جَهْلِي الْقَدِيمِ أَقْصَدُ، اسْتَطَعْتُ  
اسْتِعَابَهَا، كَأَنَّ عِلْمًا تَخْفَى بِذَاتِي الْبَشْرِيَّةَ، ثُمَّ اسْتَطَعْتُ  
أَنْ أَسْتَبْعِثَهُ.

تَسْتَقَرُّ الطَّاقَةُ فِي أَعْمَاقِي، يَهْدَأُ الْمَكَانُ، يَعْلُو صَدْرِي  
وَيَهْبِطُ، تَتَقَاطَرُ الْأَسْرَارُ عَلَى رَأْسِي:

«نَحْنُ، التَّابِعُونَ لِلتَّعَالِيمِ الْإِلَهِيَّةِ، قِرْنَاءُ «حُورَس»؛  
رَمَزُ الضِّيَاءِ وَالْحَيَاةِ، أَبْنَاءُ الْأَرْمَلَةِ، أَقْمَنَّا الْعَدْلَ،  
تَنَاحَرْنَا لِأَزْمَنَةٍ مَعَ أَتْبَاعِ «سِت»؛ الْمُلْتَجِبَرُ عَلَى الْمَادَةِ،  
الْمُسْتَحُوذُ عَلَى التَّفْوِذِ، رَمَزُ الظَّلَامِ، رَمَزُ الشَّرِّ، رَمَزُ  
الدَّمَارِ، وَاسْتَطَعْنَا أَنْ نَكْسِبَ مَعَارِكَنَا مَرَّةً، وَهُزِمْنَا



مرّةً، لكنّنا، رغم كلّ الهزائم غير المستحقّة، من بعد  
هزيمة «أوزيريس»، واغتياله بالخِدايع والحيلة، قُدِّر لنا  
تكوين مملكة «مصر» من جديد، ونصبنا «ميناء» فوق  
عرشها، ووحدنا المصريّين العُليا بالسفلى، فلقّنا لآلافٍ  
من السّنوات التّعاليّم والأسرار المُقدّسة، والممارسات  
الطّقسيّة، والغارز التدرّجات السّماويّة، وجميع التّقنيات  
الخاصّة بتشييد المعابد والأهرامات وبناء المقابر.

نحن، الملوك، وكبار الكهنة، اطلّعنا على الأسرار  
الإلهيّة، قُمنا بحراسة المعرفة، حافظنا عليها، ثمّ حرصنا  
على نقلها للكهنة من بعد.

إنّنا أولئك، حاشية «حورس» المنير، الذين دامت  
نصوصهم وأسرارهم إلى بعث.

نحن، ننقل إليك إرثنا، السرّ العظيم، فكُن حافظًا،  
ووقت يكون أوار المعركة، تجهّز، ولتعدّ عُدتك عند  
أنّ تنفتح البوابات الثلاث: البوابة المائيّة، والرّمليّة،  
والجبليّة»<sup>(٣٣)</sup>.

لا أعرف كيف أمكنني سبر أغوار البرديّة؟! كيف  
استطعت حلّ رموزها؟! لكنّي أخبرت طلاسّمها، بلا  
معرفة سابقة، لُقنتُ معناها، وبينما أفحصها راغبًا في  
استكناه فيما وراء الحروف، بشكلٍ أعمق، وأنا أتتفّس  
بسرعة، وجدتُ دخانًا ينبعث من زوايا الغرفة، يقترب

من الثابوت، ينصرف إليه، يتجمع بداخله، يتقلقل  
غطاء الثابوت، يتزحزح، كأنّ يدًا تُبعده، ثمّ يخرج رجل  
حليق الرأس.

يستقيم ناهضًا من قلب الثابوت، يتمطى، يفرد  
ذراعيه، كان عاريًا، وكنث أخشى شيئًا مبهمًا، لكنّي  
صممت على استكمال المجازفة، وإن تعرّق وجهي، ظللت  
واقفًا أرمقه، تصلّب جسده وهو يثب لخارج الثابوت،  
ثمّ بدأ ينسلخ من جلده، كثعبانٍ، وبينما ينسلخ، كان  
رداؤه الجلدي قد تغصّن جواره متهدّلاً، بدا يُحَيّى من  
جديدٍ، انبطح، لعق بلسانه حافة الثابوت، راح الثابوت  
يتشظى أحجارًا صغيرة، ثمّ يتشكّل مرّة ثانيةً، بهندسيّة  
ملغزّة، يتشكّل كرسيًا ذراعاه على هيئة النسر، وظهره  
برأس أسد.

جلس عليه، اكتسى جسده لونًا بشريًا، لوح بيده،  
استدعاني لأمتثل، بقيت واقفًا مندهشًا، لوح ثانيةً،  
دنوت منه، لفّ البرديّة ومضغها، ثمّ ابتلعها، نفث  
بخارًا، خرج من فيه طائرٌ أحمر، زقزق، طاف على  
الجدران لوئها.

الطائرُ يباشر تحليقه حول الجدران، تتلون الغرفة،  
يُغرّقها بالرموز، وبدا رمزٌ يشعّ كضوءٍ متسيدٍ:



«أبوفيس»..

قرأتُ الرَّمَزَ بوضوحٍ ويسرٍ.

يُعيد الطَّائِرُ للجدرانِ حياتَها، تتزيّن، كأنّها انتقلتْ إلى  
ماضٍ سحيق، لم يكن فيه معنى الأفول، يخلق الطائر  
هتّوه عيناى مع الألوان، أجدي استرحْتُ، استطابْتُ  
روحي هذا السّر.

قيل: تجهّز.

وها أنا سأنتظر، بكلّ هذه المعرفةِ الوليدة.

## الطَّوَّاف

يتبدّل إحساسي بهذا المكان ما بين بين.

كالغريب يقف على حافة سفر، لا يدوم له مستقر،  
ولا يكتمل حلم؛ ولجئت إلى عالم من التساؤلات، كأنها  
ركام الأزمنة المنصرفية، عالم دُفنت فيه الأسرار، ولم يفضّها  
تاريخ، يغيب العالم الآخر المهجور - بلا طواعية - لتمامه،  
لا يظّل إلا دهشتي، بينما أشعر بالظما، أشعر بالإرهاق،  
وعلى الناحية الأخرى من الحاجز الحسي يبدو المعبد،  
مهيّأ، يضجّ بالحياة، كأنهم لم يفرغوا من بنائه إلا منذ  
لحظة عابرة.

الشَّمْسُ تغمر المعبد، الكهنة وكبار الموظّفين يتراضون  
حول المذبح المقدّس الذي تقدّم عليه الأضحية؛ طيور  
وغزلان وثيران وماعز وكباش.

يضرب قلبي، محتجزٌ لا أستطيع المرور، أبي هناك  
يلوّح بيده للجموع، وفي ظهره تقف أمي كيمامة  
تحتمي بغصن، الاحتفالية تبدأ، أمام بصري، فيما أعجز  
عن المشاركة فيها، و«ماعت» منشغلة في الأعلى مع  
حيواناتها.

حشودٌ واقفةٌ تنحني فاردةً أيديها عند مرور سربٍ  
محمولٍ على أكتافٍ بعض الحرس، السربُ محفّة فوقها  
مركبٌ خشبيّةٌ مطلية بالرسومات، على سطح المركبِ  
تابوتٌ ضخم.

جوقةٌ موسيقيةٌ بالطبول والقيثارات والمزامير  
والدّفوف، يغنون أنشودةً احتفاليةً، فيما يجلس صاحبُ  
التاج مصفّقاً بيده، يجلس على كرسي أعلى من الجميع،  
يلتفّ حوله الكهنة، بدا عملاقاً، له ملامحٌ صلبة، يرتدي  
في أصابعه خواتمَ بأحجارٍ نفيسة، ومن أذنيه يتدلّى  
قرطان من الذهب، لا تعبير على وجهه، كان مكحل  
العينين، وسيماً، مليحاً، بشرته مشربة بالحُمرة، ولون  
عينيه فاتحٌ، كغيم.

يدوي المعبد، يهبط صاحب التاج، يتقدمه الحرس، لا  
يجرؤ حارسٌ على النظر إليه، إنَّ جسده مقدسٌ، فقد  
يضعون على جسمه رداءً مطرزًا بالفضة والذهب، يدعونه  
بساعديه إليه ثم يشد حزامًا فيلتف بالرداء تمامًا، يعطونه  
بعضهم وجوههم بالتراب وهم يركعون تحت قدميه،  
يناوله أحدُهم لفافة بردي، يلوح بها، ثم يعدو من  
يسار المعبد إلى يمينه، يعدو وينعطف مع الجدار  
الخارجي، كأنه المسار السماوي للنجوم والشمس، لا  
يستغرق إلا أن يعود من دورته حاملًا البردية فيلقيه  
إلى أحد الحرس، بدا جسده فتية، لم يُرهقه الزكض.  
يتقدم نحو أبي، يرفع يده يحطها على كتفه، يقول:

- هل أنت سعيدٌ بالاحتفال يا أخي؟!

- احتفال بالطبع، لم يكن ثمة داعٍ إذن من ممارسات،  
شعائر التعاليم بالبردية، لسنا في مراسم دينية!

- كي نحضن الاحتفال من الشرور.

- إنما تُحارب الشرور بالخير يا «ست».

ضحك «ست»:

- أجل أجل يا رب الخير، وبالهدايا تُحارب أيضًا، لقد  
جلبت هديةً لعلها تروقك.

واستدار وهو يضيف:

- عمومًا لقد تخلصنا من جميع أعدائنا الذين  
أمطرونا بوابل الشرور يا أخي، بل وارتوينا بدمائهم،  
ليس عليّ إلا التصدي لشر واحد، خطير، ولا يمكن  
محاربته.

كان صوته عاليًا مسموعًا، التصقت أُمِّي بأبي أكثر،  
طوّف أبي بعينه، بدا عليه التوجّس، تلاحمت أهدابُه  
من أشعة الشمس المُسلّطة، صاح «ست»:

- تعالوا.

لبى بعض الرجال طلبه، تقدّم آخرون وأراحوا  
التّابوت على البلاط أمامه.

- افتحوا التّابوت.

فُتح التّابوت، مضى الرجال يتناوبون الرّقود فيه، لم  
يكن ملائمًا لأحدهم، استدار «ست» نحو أبي:

- كي تعرف أنّ الهدية لا تناسب إلا صاحبها، تعال  
جرب.

هزّ أبي كتفيه مبتسمًا، كان حراس ينفخون أبواقًا  
نعاسيّة، بدا القلق على ملامح أُمِّي، شدّته إليها،

لكنه طبطب على مرفقها وصعد حيث الثابت، قَبَا،  
أن يدخل إليه ضمه «ست»، ضمه طويلاً، اندهش أبي  
من مثل هذا الشعور المفاجئ، لكنه رفع ساقيه ساقاً  
بغد ساق، ودلف إلى الثابت، كان الثابت على مقاس  
جسده لحد التطابق، صفق «ست»:

- ألم أخبرك!

في سرعة هرع بعض الحرس وأغلقوا على أبي الثابت،  
ضرباً الحاجز بيدي، دون جدوى، رفعْتُ عيني إلى  
«ماعت»، صرختُ:

- أهي عدالتك؟!

لم تستجب، منهمكة عني، عُدت ببصري إلى حيث  
أغلق الثابت تماماً على جسد أبي، رغم ذلك، استطعتُ  
أن أسمع دقات قلبه المتسارعة، تضرّعه، كان من داخل  
نعيه يخاطب الآلهة بصوت متقطع:

- يجتاحني الخوف، أخشى من السير في الظلام، هل  
قُدّر لي الغلبة على يد مَنْ هزمتهم من قبل؟

يستوثقون من إحكام غلق الثابت.

- أبناء الظلام يريدون الخلاص مني، لا تتخل عني يا



«آتوم- رع»، وإلا فأنا هالك يا محالة!

لم يزل أبي يتضرّع.

تصرخ أمي، يحاوطها الحراس، استقامت الزماح،  
تراض جنودٌ بدروعٍ حديديةً، وأقنعةٍ جلديةٍ حمراء،  
استلَّ «سِت» سيقًا لامعًا، تضرّعت أمي بدورها:

- أهذه هديتُكَ لأخيك يا جاحدٍ؟ ألهذا الحدُّ تُضمر  
الحقد؟

- إنه جزاؤه.

- ربّ الحياة لم يرتكب إثْمًا، لا تجعل بغضك يعميك،  
أتوسّل إليك ألا تتنزع قلبي من ضلوعه..

- لن أنتزع قلبك، بل قلبه.

وراح يدور حولها ساخرًا:

- دعيني أقرر.. قلبك أم قلبه؟! أم تقرّرين أنتِ؟!

ارتعشت شفتاها، ظنّها قد يتراجع عن عزمه إزهاق  
روح أبي.

صعد «سِت» إلى حيث الثابوت، نقره نقرتين، قهقهه،

رمى أمي، استدار إلى جنوده، أمرهم أن يفرجوا عن أبي،  
فكّوا التّابوت، أخرجوا أبي خائراً القوي، وقبل أن يغلقوا  
التّابوت ثانيةً زعق فيهم:

- اتركوه مفتوحاً، لم ينتهِ الأمر، سنودعه فيه مرةً  
أخرى.

تكالبوا على أمي قيدوها، كانت الجماهير تتفرّج  
وعلى وجوهها الفزع والسّخط، والعجز، بعضهم يبكي،  
بعضهم وضع كفّيه على رأسه، بعضهم تفرّص أرضاً.

الجنود أتباع «سِت» أوسعوا أبي ضرباً، تهالك بينهم،  
صراخُ أمي بلغ حدّ النّباح، اقتادوا أبي إلى شجرة جَمِيز.

يلقّون على الشّجرة مشنقةً، يربطون رأس أبي فيها،  
أصرخُ بدوري، مقهوراً، تحجزني العواطف فيما بينها ولا  
أستطيع التّدخل، تصيح أمي والدموعُ تقفز من عينيها  
كالشّلال:

- كفاك يا «سِت»، خُذ الملك والقصر والتّاج واطركه  
لي، كفاك.

لا يُنصت، في عينيه شرٌّ، يتدلّى جسدُ أبي من المشنقة،  
ينازع سكرات الموت، يستلّ «سِت» خنجراً من حجر  
«الظّران» الأسود، يحوّل بيديه جسدَ أبي، ولما يطمئنّ

لتمام موته يغرس الخنجر في قلبه، يجتثّه، تتقاطر دماؤه على ثوبه، على الأرض، تسخّ أمي، أضرب جدار الهواء بيديّ، قلب أبي لا زال ينبض، ولو على وهن، «ست» يتجه إلى الثابوت الذي ينتظر وقوده، يُلقى في حشائه القلب، يحملون ما تبقى من جسم أبي، يمزقه بالخنجر، وكلّما انتزع قطعة رماها في الثابوت، ومن بين شفّتيه سال اللّعب، كأنه سحران.

أفلتت أمي من قبضة الحرس، اندفعت نحو «ست»، تركله، اعتلته، حاولت تقضم أذنه، لكنّه دفعها فوقعت على الأرض، راحت تنازع بيديها والحراس يحملونها، راحت تصرخ، أغرقت دموعها حشية المعبد، وقف «ست» هناك مزهواً بفعلتيه، أمام كلّ ناس المدينة، الذين تلجّموا، تهامسوا، لكنهم أقسروا على التصفيق في نهاية الأمر، و «ست» يمضي بين قرنايه، الذين تعلو هتافاتهم تطالب به ملكاً متوجّاً على عرش «مصر»، وارتقى محقّة، ستطوف به المدينة، سيعلن عن انتصاره الخادع.

تهاويت أرضاً، يغيبون بالثابوت، سيرمونه في النهر، ستنكتكم أنفاس أبي، سيختنق في قاع المياه، ستصبح كلّ الاحتفالات دموية، سيصبح شرّ في هذا العالم.

«ست» يُحاصر بالمباركات والورود.

«سِت»؛ فائق القوة، مدمر التور، قاتل أبي.

«سِت»؛ رب الصحراء والجذب.

«سِت»؛ الثار المستحق.

ها هو سوف يُنصب إلهاً أبدئاً للظلام.

أرى الجنود يضعون تابوت أبي المليء بأعضائه الممزقة  
في طوف خشبي، سيقطع متون النيل سابحاً إلى الشمال،  
يغطون التابوت بأحزمة ذهبية، يجرونه إلى عمق الماء  
ويدفعون الطوف، يتحرك الطوف، يتراقص كلما تقلب  
الموج.

الطوف سوف يرسو على كل ضفة، سوف يلفظ  
التابوت جسم أبي قطعاً، وعلى كل شاطئ سيستقر جزء  
من أبي.

ستورق الضفاف، تخضر، ستنمو الأشجار في انتظار  
أن تسافر التكلّي كي تلملم الأجزاء ثانية، لتصنع زوجها  
من جديد.

## المسحور

لا نموت، نُؤَجَل فحسب.

أطوي تحت جناحي المطيرين تجاعيدَ العالم، أتحرك  
في ثنيات الطبيعة وأسكن دُرى السَّماء، تصبح مركب  
«رع» كالحلية في قبضة يدي، أستحوذ على «سا»<sup>(٢٤)</sup>  
و«حو»<sup>(٢٥)</sup>، لم يكن لدي نية أن أفرج عنهما، كانا  
ضئلين وأحدهما يقف على مقدمة المركب والآخر على  
مؤخرتها، تضرعا لي، تناثر الرذاذ من فمي وأنا أقهقه:

- أنتما حصيلة إخصاء في نهاية الأمر.

لَمْ أَشْهَدْ إِخْصَاءَ «رَع»، لَكِنِّي اسْتَحْضَرْتُهُ، عُدْتُ بِالسَّرِّ إِلَى بَدَايَةِ أَرْلِيَّةٍ، عِنْدَمَا قَلَمُوا سُلْطَتَهُ، وَأَرْغَمُوهُ عَلَى الْإِخْصَاءِ، رَأَيْتُهُ يَتْنُ، ضَعِيفًا هَزِيلًا، وَمِنْ دَمِ إِخْصَائِهِ يُوَلَدُ «سَا» وَ«حُو»، يَلَازِمَانِهِ، يَتَمَّانُ تَحَوُّلَاتِهِ وَهُوَ يُبْجِرُ فِي الْفَضَاءِ كُلَّ لَيْلَةٍ، كَأَنَّهُمَا يَحْرُسَانِهِ مِنْ شَرِّ، لَكِنِ الدَّمُ الَّذِي أَرِيقُ كَانَ دَمًا بَدَائِيًّا جَدًّا، لَا يَكْفِي شَبَعَةَ لَحْظَةٍ، بَلْ سِرَّاقِ دَمٍّ، سَتَتَخَضَّبُ الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ بِالدَّمِّ، لَسَوْفَ يَصْبَحُ تَاسُوعُهُمُ الْمُقَدَّسُ<sup>(٣٦)</sup> غَيْمَةً أَقْطَرَهَا وَقْتُ أَشَاءَ.

تَتَوَسَّطُ لِهَمَّا لَدَيَّ «سَايْتِ»<sup>(٣٧)</sup>، عَمُومًا، وَفِي نَهَايَةِ كُلِّ إِشْرَاقٍ، كَانَتْ تَتَوَسَّلُ لِي أَنْ أَمْنَحَهَا مَاءً تَقْدَمُهُ لِلْمَوْتَى كِي يَتَطَهَّرُوا، أَمْسَكْهَا مِنْ قَرْنَيْهَا وَأَحْدِفْهَا إِلَى أَسْفَلِ، أَرْعِدْ:

- تَطَهَّرِي مِنْ دَنْسِ «خَنُوم»<sup>(٣٨)</sup> أَوَّلًا.

أَسْبَحْ فَوْقَ الشَّوَارِعِ وَالْبُيُوتِ، لَا ذَكَرَ لِلْبَشَرِ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ أَرَاهُمْ، كُلَّمَا عَصَفْتُ ارْتَعَبُوا، كُلَّمَا هَطَلْتُ اخْتَبَثُوا فِي خَنَادِقِهِمْ.

أَسْبَحْ، أَتَقَطَّرُ فَوْقَ بِهِوَ أَعْمَدَةِ «الْكِرْنَك»، يَنْفَرُجُ سَاقَا الْأَرْضِ، تَصْبِحُ الْأَعْمَدَةُ طَرِيَّةً، أَنْبَسُطْ، أَفْتَرَشْ، أَرَاوِدْ فَرْجَ الْأَرْضِ، أَمْلَأْهُ، تَحْبِلُ الْأَرْضُ بِي، أَسْرِ فِي أَحْشَائِهَا، أَرُوي حَرْمَانَهَا الْمُقَدَّسَ، أَتَفَرِّعُ فِي مَجَارٍ وَأَقْنِيَّةٍ، أَمْنَحُ الْبَذُورَ حَيَاةً كِي يُطْعَمَ الْبُؤْسَاءُ مِنَ الْإِنْسِ، أَرْمَمُ الشَّرُوخَ بِالطِّينِ، يَصْنَعُونَ مَنِيَّ بِيوتًا وَمَلَاجِيْن، لَا أَعْرِفُ الزَّمْنَ،

أي زمن! أنا الزمن وأنا حلولة، أنا أدور الأحداث وفق  
مشيئتي، إذا رضيْتُ طابَتْ حياتُهم، إذا سخطْتُ تقلَّبتْ،  
إذا أردتُ الجفافَ كان، سيقدمون لي الفدوى والرجاء،  
سيقفون على الضفاف، سيجلبون غرقاهم بالتقريب لي.

أنصرف على جريانٍ إلى البحيرة، بحيرة المعبد، أغفو  
في مائِها، أستكين، أستريح، وكلُّ تساؤلهم بغد ذلك  
سيصبح: لماذا فارث البحيرة، بغد أن ثبت منسوبُها،  
وكان لا يتحرك، لا زيادةً ولا نقصاناً؟!

## حسيب الجبل

سريعًا يهبط الليل، ينصرف وقتي ولا أحس بانصرافه،  
كانَ الشَّمْسَ مشعلًا إذا نفخْتُهُ سرعان ما ينطفئ.

لا أكاد أدلف إلى معتكفي حتّى يتناهى إلى سمعي  
صوتٌ خريِرٍ، أتقضى، لا أتحرّك، أستتبع الصّوتَ، أقف  
قليلاً أحاول استكشاف موضعه، أهز رأسي لما ينقطع،  
ثمّ بغتةً أجدي متدحرجًا إلى مسافةٍ أمتارٍ لأسفل.

الجبلُ يهتزّ، وحجارةٌ تتهاوى من أعلى.



كان ظلٌّ شاسِع يسقط مِن بعيد على الجبلِ، يسقط زاحقًا، ارتفاعه إلى الأفقي، وامتداده إلى الجوانبِ حيث لا ينتهي البصر، بدا مخلوقًا مِن بقايا شرٍّ قديم، بُعث ليدمر العالم الذي نعرفه.

الظلُّ يتضح، يدنو سريعًا فاستطيع أن أحدد ملامحه.

مِن جهة الوادي تتقدّم أفعى ضخمة، أتمرّ مكاني، كانت الأفعى تتقدّم وهي تبخّ من فيها الحمم، تتقدّم بسرعة غريبة، عنقها ممطوط ورأسها مقوّسة، تضرب بذيلها، كلّما تقدّمت قدّ من جسمها أجنحة، كمجاديف على جانبيها، أجنحتها تهدّم البيوت فيما حولها، وهي تدبّ بقدميها مهولة نحو الجبل.

بدت الأفعى تفخّ داخل رأسي كأنها تُخاطبني.

لم أفسر فحيحها، حاولت الاحتماء، أغلقت باب المعتكف، كان الأمرُ عبثيًا، ممّ أحتمي! وهل يُجدي الاحتماء من هذا الشرّ المُقيل يقصّدي بالتحديد؟!

فتحت الأفعى فكّيها، قطّر ناباها الدّم على الأمكنة، ثمّ تحوّلت خطواتها الزاكضة إلى طيران، ارتفعت عن الأرض وحلقت، ذيلها في جهة ورأسها في أخرى، وبدت حراشيفها صخريّة، وأنيابها كخطاطيف مسنونة، يدور الهواء معها في دواماتٍ، وكلّما اقتربت استحضرتُ

طلاسمي، لا يقاوم الشرُّ بغير السَّحر، وأيُّ شرٍّ هذا!  
إنَّه شرٌّ مهيبٌ، ظلٌّ متخفيٌّ، نضج على حقدٍ، أكسبته  
السَّنوات قوَّةً وغلاً.

تشتعل الأراضي، وبطنها تتألق بالنَّار، ترشُّ غضبها  
على الحقول، على المعابد، والسهول، ترتكز على قدميها  
عند حافة الجبل، رغم ذلك، تكاد رأسها تصل إلى،  
تفرد أجنحتها، تفتح، يتحوَّل فحيحها إلى قرقرة، تضرب  
بفكيها الصَّخر، فيتناثر، أصبح:

- «أبوفيس»، عودي إلى موطنك في الأرض السفلى.

تضمُّ جوانب الجبل بأجنحتها، تلفح وجهي أبخرةً  
لسانها النَّاري، بينما تُستخرج من أحشاء الجبل كائناتي،  
حيات، ذئاب، بنات آوى، وأرانب بريَّة، هؤلاء جنودي  
اليوم، سوف يستلون أسلحتهم، ويبارزون الشرَّ معي،  
جنبًا إلى جنبٍ.

تمدَّ لسانها، تحزَّم به خصر الجبل، فيتقلقل، تشدّه  
إليها، تقلعه، يتخلخل عن قواعدِه ويرتفع معها، يميل  
بسُنَّه للأمام فتتدفَّق إلى أسفل صخوره متهاويةً، كأنَّها  
يُفرغها من أحشائه، يفرش ظلُّه المساحات كُلَّها، لا  
أستطيع السيطرة على جسدي، أثقلب بينما الجبلُ  
يطير مع «أبوفيس»، كانت تخفق بأجنحتها فتخلق  
للوراء، لها ألف قدم وألف جناح، يطلُّ الشرُّ من

عينها المشقوقتين طولياً، المتقدتين، يجرف الجبل في جريانه الجبري كل ما ارتفع عن الأرض، يجرف البيوت، الأشجار، النخيل، و«أبوفيس» غطّ ذيلها فيجاوز النيل ويستقرّ على الضفة الأخرى، فيما تزرع الجبل في قلب المياه، يبدو كجزيرة متكسرة، والأمواج ترتفع لتصب في فؤاده هادرة.

من السماء تدلى خيوط دم كحصيرة من شوك، لا يبلغ البصر منشأها، تدب الحياة في الخيوط المعلقة، تتحرك كالسنة، تشتبك حول الجبل.

بالسرّ سوف أحارب، لم أخلق إلا لمثل هذا اليوم، أمكن من شحذ جسدي بالهمة، أقف في منتصف فئات الحجارة، تركز قدمي على إرادتي، أفرط مسبحتي، مُتَشَقِّق كسيف له نصل لامع، تتحوّل حباتها الزجاجيّة إلى معدن، تسيح الحبات في بعضها بعضاً، يتناول السيف، يشجّ بطن «أبوفيس»، في غضب تفجّ فحيحاً كاسحاً، وتتنزع نفسها وتطير إلى أعلى، ثمّ سرعان ما تلملم أجنتها وتعاود الانقراض على الجبل.

الأمواج تملأ فراغات الحجارة، تُزلّ قدمي، اكاد أسقط لولا أن أرفع نفسي مرةً أخرى، تبرق السماء ويكاد برقها يصعقني، يحاط الجبل بغابة من ضباب، البرق يضرب جوانبه، و«أبوفيس» تسدّد بأجنتها على سطح

الماء، فتهتاج الأمواج على هياجها، تلطمني على رأسي.  
تنتشلي من مكاني فادور في الهواء مع دوامتها، الكم  
الموج بساعدي، أنفخ، يكاد صدري يخلو من الأنفاس،  
أنفخ وأنا أستذكر في رأسي كل الأسرار، ثم تتشكل في قلب  
الدوامة فقاعات هوائية، تسبح وتمزج نفسها إلى بعضها  
البعض، أستعيد أنفاسي، يصير قلب الدوامة مُفرغًا من  
الماء، حتى تلفظني، أسقط على وجهي.

«أبوفيس» تنتشر متضخمة، ينسلخ ظهرها عن أجنحة  
أخرى، منصوبة نحو السماء، تخرج من مفاصل فقارية،  
تتشكل الأجنحة المرفوعة بريشها إلى أعلى مع البارزة  
من أجنابها كزوايا قائمة، تفخ في ثورة، تحلق بثقل  
وعصبية حول الجبل، يسود الظلام أكثر مع التفافها،  
تبث في الظلام ريحًا، بدت تدبر أمرًا بطيرانها اللولبي  
المنفعل.

من قلب الظلام الذي يسترسل حول الجبل يتحول  
السحاب إلى مومياوات دخانية، كلما نفثت «أبوفيس»  
ريحًا من فمها هبطت موميا إلى ساحتي وتجسدت،  
حاصرته المومياوات، احتشدت من حولي، كانت في  
أياديها عصي من نار، بينما تتردد ضحكات «أبوفيس»  
مثل الصدى.

أكاد أسمع صوتها جليًا:

- ما أسهل العثور عليك أيها الكهل!

- وما أسهل الفوز عليك في كلِّ مرّة!

- ظنّك ستنجو اليوم؟!

- كنجاة العالم من شرك وشر متبوعك قديمًا، كلّه  
بعون الله.

- ابتعد عن طريقي وإلا هُلكَت، ما الذي تحاول  
فعله على أيّة حال؟!

- اتركي الجبل وعودي إلى شكلك القديم.

قعقعت ضاحكة:

- لا يوجد بشر حي يُمكنه أن يحول بيني وبين الجبل.

وبخّت عليّ نارا ساخطة، فجأة ارتفع جناح من  
صخر، تلقى النار عني، وطوّحها لتنتثر حول الجبل.

## المسحور

مثلما سامتد إلى أعلى، سامتد إلى أسفل، إلى الأجناب، شرقًا وغربًا، شمالًا وجنوبًا، ساغمر كل الفراغات إلى ما لا نهاية، سأصبح نشوءًا جديدًا، سأعمر أطراف المعلوم وأطراف المجهول، سأستقر في تخوم الفضاء، سيقيمون شعائزهم، سيسترضونني إلا أسخط عليهم، نعم، سوف أعدو المحيط الأزلي السرمدي، منشأ كل ظلام وكل شر، وسوف ينتسب العالم لي من بغداد.

أتمطى في قلب البحيرة المقدسة، يتقشر الجعران

الحجريُّ الذي يحرسها، يطوفون حوله إذا كانت لديهم  
أمنيّة، اليوم سيطوف حولي، يتقشّر الجعران من لونه  
الصخريّ ويستعيد ثوبه الأسود اللامع، يقفز عن  
قاعدته، يقلّب أطراف المعبد بعينيه المشّعتين، ينحدر  
إلى حافة البحيرة، أخض الماء فيفور، يزد مرتفعًا، يدنو  
الجعران، أسكب نفسي عليه، يشرب، يرتوي، وبينما  
يمتلئ بي يكبر، يتمدّد، تتناول سيقانه إلى حدّ الأعمدة  
الشاهقة، تبدأ الحجارة في الانفصال عن بعضها البعض،  
كلّ حجارة المعبد، تُعيد تكوين هياكلها، تتراعى وتتداخل  
من كلّ الأطراف محلّقة، البوابات تنغلق حولي، حجرة  
قُدس الأقداس تضوي، الرّمل يسبح ويرتفع، يصبح  
كثبانًا متفرّقة ضاربة كسور حول المعبد.

أنعزل في ملكوتي.

الحجارة تتراس من جديد، تتخذ أشكالًا خدميّة،  
يقترّبون من حواف البحيرة، جنودًا جنودًا، في أياديهم  
جريدٌ نخلٍ مشتعّل، يطوقون مربّع البحيرة، أصدّ  
لأعلى كعمودٍ متدفّقي، يصعدون بأبصارهم معي.

يرغمّون، يُنشِدون غنوة البعث.

## الطَوَاف

بقايا أبي راقدة في ناووسٍ يحمله زورقٌ بمجاديفٍ،  
تنتحب أمي وهي راكعة جوار رأسه المبتورة، الزورق  
مجرورٌ بأربعة ثيرانٍ يقودها أربعة رجالٍ، الموكب  
الجنائزي في طريقه إلى المقبرة، كاهنٌ عيناه دامعتان  
يحرق البخور في مبخرة وينثر الماء على الموكب من  
قارورة، وفيما وراء الزورق ينوح رجالٌ، وتعدّد نساءً،  
في مؤخرة الموكب تابوتٌ، سيعبر به أبي إلى العالم الآخر.

يقول الكاهنُ:



- تَبَقَّتْ قِطْعَةً كِي يَكْتَمِلُ التَّابُوتُ وَيُدْفَنُ.

تردّ أمي:

- إنهم يتلون عليها في المعبد، قبل أن نصل إلى  
الجبانة تنتهي الشعائر.

تُرى؛ هل استطاعت أمي، بالفعل، أن تلملم أشلاء  
أبي كلها؟

«ست» فرّق أجزاء أبي على أقطار «مصر»، كان ظنّه  
لن يعود، لن يصبح له إرث، طافت أمي البلدان، ومن  
كل بلد كانت تلملم قطعة من جسدي أبي المهدّر، إلا  
جزءً تبقى، هذا الذي ستستبعثني به، قضت أعواماً  
في البحث عنه، ثم بصقته سمكة من فمها ذات صيد،  
واستطاعت أمي أن تباشر جميع المراسم والطقوس  
التي تؤهلها لإنجاب إليه، عدا طقس ينبغي أن تمارسه  
في الجبانة.

تشتد وتيرة عمل النسوة اللواتي يكتبن على الألواح،  
تقلّب القبور التي يسكنها الموتى تحت أقدامهن، يُسرى  
بجسدي، أفرّق نطقاً من أثير، ثم أستاذعي متجمّعا  
حيث رنين في الأجواء وإنشاد وروائح بخور.

أدخل في سحابة من الدخان، أراني ملتحقاً بأبي وراء

عمود المعبد، وهناك، مِنْ عِنْد بَابِ المعبد، فتاةٌ تَتْلُو،  
تنازع شراً استولى عليها، ومجذوبٌ جوارنا يُبْعِدُهَا  
بإشاراتٍ مِنْ يَدَيْهِ، ويتعوذ، ويتلو، يأتي أحدهم،  
يحملها، ويركض بها مبتعداً.

أسيرٌ وأبي عند انحسارِ الرِّيحِ مَعَ مَنْ يسيرون.

- وما حاجتنا إلى زيارة هذا الشيخ يا أبي؟!

- المعرفة.

- لكنك قلت إنهم جميعاً دجالون من بُعدٍ جدي!

يلتئمني على جبهتي:

- يُجْزَى كُلُّ صاحبٍ سعيٍّ بالمعرفة.

طابورٌ مِنَ النَّاسِ يقف انتظاراً للدُّخُولِ عَلَى مشارفِ  
خلوةِ الشَّيْخِ، لَكِنْ نَفْراً أَبْلَغُهُ بِهِوَيْتِنَا، فخرج يستقبلنا  
بنفسه، فوق وجهه أمارات الغبطة، رافقنا إِلَى الدَّاخلِ  
وأفسح لنا مكاناً بجواره، جلسنا، وضع راحته عَلَى  
منكبِ أبي بتوقيرٍ:

- سيرةُ «الطَّوافِ» الكبيرِ المُباركِ بلغت أَقْصَى الأَرْضِ  
وأدناها.

هَزَّ أَبِي رَأْسَهُ بَامْتِنَانٍ، صَرَفَ الشَّيْخَ الْفَارِسِيَّ أَتْبَاعَهُ  
بِنَظَرَةٍ مِنْ عَيْنِهِ، خَلَا إِلَيْنَا، كُنَّا جَالِسِينَ بَيْنَ جِدْرَانِ  
غُرْفَةٍ مُلْكِيَّةٍ قَدِيمَةٍ، كُنْتُ مُشْرِقًا مِنْ فَوْقِ أَرَانِي فِي سَنِي  
الصَّغِيرَةِ وَأَبِي يَحَاوِطُنِي بِذِرَاعَيْهِ، شَدَّنِي الشَّيْخُ مِنْهُ وَهُوَ  
يَقُولُ:

- اتركه لي.

بدا عدمُ الفهمِ على ملامحِ أبي، لكنَّه استجاب على  
فضولي، وسَدَّ الشَّيْخُ رَأْسِي عَلَى حَشِيَّةٍ جِلْدِيَّةٍ، وَجَدْتَنِي  
أَسْتَرِيحُ لِأَوَامِرِ يَدَيْهِ، ضَمُّ أَصَابِعِهِ وَفَرْدُهَا، انْتَشَرَ بِخَوْرٍ،  
حَرَكَتُهُ أَنْامِلُهُ عَلَى نَقُوشِ الْجِدْرَانِ، رَاحَتِ النَّقُوشُ تَنْزَلِقُ  
مِنْ فَوْقِ جِدْرَانِهَا عَلَى أَصَابِعِهِ كَأَنَّهُمَا مُسْتَدْعَاةٌ لِإِرَادَتِهِ  
لِلْمَثُولِ، تَرَكَمْتُ الْحُرُوفَ وَالرَّمُوزَ بَيْنَ يَدَيْهِ، خَلَطْتُهَا،  
كَانَتْ تَشْغَى لَوْنًا أَرْجَوَانِيًّا، بِيَدِهِ الْأُخْرَى سَحَبَ رَتْقًا  
وَفَرَشَهُ عَلَى جِبْهَتِي، نَثَرَ الْحُرُوفَ عَلَى الرَّتْقِ، انْفَرَطَتْ  
سَابِغَةً ثُمَّ رَاحَتْ تُعِيدُ اكْتِتَابَ نَفْسِهَا، تَحَوَّلَتْ الرَّمُوزُ  
الْقَدِيمَةُ إِلَى آيَاتِ قُرْآنٍ، كُنْتُ تَحْتَ يَدِهِ مَغْمًى، أَذْكَرُ  
أَنِّي حِينَئِذٍ لَمْ أَتَّبِعْهُ إِلَى مَا أَتَتْ يَدَاهُ، الْيَوْمَ، فِي هَذِهِ  
اللَّحْظَةِ، أَشْهَدُ مَا لَمْ يَرَوْهُ لِي أَبِي قَطُّ، كُلُّ مَا قَالَهُ إِنَّ  
الشَّيْخَ حَصَّنَنِي بِقِمَاشَةٍ عَلَيْهَا آيَاتُ الْقُرْآنِ، لَمْ أَعْرِفْ  
كَيْفَ كُتِبَتْ الْآيَاتُ وَلَا كَيْفَ كَانَ يُمكنُ أَنْ تَحَصَّنَنِي بَعْدَ  
حِصَانَةٍ جَدِّي لِي!

لضم الشيخ الرّثق في بعض الخيوط ولقّه جيّدًا ثمّ  
علقه في رقبتى، وقال:

- محفوظٌ بأمرِ الله.

همهم أبى:

- لم تكن هذه نيّة زيارتي، أنا قادر على تحصين  
ابني يا شيخ!

- لا بأس، تبدّل النّوايا يا ابن شيخنا كلّما أدركتنا  
المعرفة.

- أجل، جئتُك للمعرفة.

- وها قد عرفت.. أليس كذلك؟!

- وفقًا لما رأيْتُ، ليست معرفةً، إنّ مثل الأمور  
مشهودة في نواحيننا يا شيخ، يمارسها صغار الدّجالين، لا  
جديد فيما صنعت.

- ولا جديد فيما قدّ تصنعه البشرية جمعاء، الجديد  
في يقينك بالأفعال ووعيك بأثرها، دون أن تستهين بها أو  
تحتطّ من قدرها.

- لا نريد أن نعطلك، لنا لقاء آخر.

بدا قد فطن أبي لإشارة الشيخ، عدلني ثم نفذ  
جلباي من التراب وضمني بين ذراعيه وخرج.

يتضرب المشهد، أتبخر ثانية، أعوم مع الدخان، كأني،  
في هذا العالم، لا مستقر لي ولا حدود أو ملامح.

## حسيب الجبل

أخذت المومياوات تقترب، لكنّ الجبل بدا استفاق،  
على كلّ صخرة كان يرسم وجهه، ثمّ يقبّ، يتجسّد شيئاً  
فشيئاً، يصبحون رجالاً بهيئاتٍ عملاقةٍ، يقفزون ينفضون  
عنهم التراب، يقفزون مذهبين، يتألقون في وسطِ العتمةِ،  
مقنعين بأقنعةٍ فضيّةٍ، بدوا قدموا مِنْ غُمقِ التاريخِ،  
ورؤوسهم ممدودة للأمام كرؤوس الآلهة المنقوشة على  
جدران المعابد.

تُستعاد الحياة، تفتتح بطون الصخور كمخارٍ، تقبّ منها عرائسُ لهنّ شعورٌ من نارٍ، ووجوهٌ كموج البحرِ، ليس لهنّ سيقانٌ ولا أذرعٌ، بل أطراف كالغراء زلقة الملمس، تلتصق بالمومياءات، تقتلعها من أماكنها، ترمي بها إلى حيث فضاء السماء المظلم، تُسمع أصواتها صراخًا، يدخل الرجال المقتنعون إلى عظام المومياءات بالسيف، يفرقون العظم، كما لو أنهم يجرّونه، يبذّونه متهشمًا على أطراف الجبل.

اندفعت «أبوفيس» إلى أعلى زاعقةً بالفحيح، نفثت بخارًا كثيفًا من منخاريها، رائحته عفنة، راحته تلف في حلقاتٍ وهي تفرش على كتل الظلام نارها، بدا الظلام يستوقد، وبدت «أبوفيس» تسعى إلى إشعال متن الجبل، كانت قد ارتكزت على قمته ومضت تقذفه بالحُمم، في حين تراصف الجنود المقتنعون والعرائس كشبكة تُبعد الحُمم عن الجبل، بلا جدوى، كانت النارُ أشدّ، أخذت السنةُ اللهب ترتفع، ترتفع من بين الصخور، وسمعت للجبل أنينًا، كأنما جسده يسبح، فيما «أبوفيس» تنخفض مع انخفاض المنحدرات الصخرية، وكلما انخفضت، طارت النارُ من فيها.

فارت أحشاء الجبل، «أبوفيس» لم تترك ثقبًا أو حفرةً إلا وأغرقتهم بالحُمم، وشعرت بالتواييت المستريحة في بطون الأنفاق تتشظى، يهرب المحنطون منها، تلتهمهم

النَّارُ، يَثْبُونُ مِنْ أَفْوَاهِ الْحُفْرِ مُشْتَغِلِينَ، وَسُرْعَانَ مَا  
يَتَحَوَّلُونَ إِلَى وَمَضَاتٍ نَافِقَةٍ.

جدائل الظلام تتضفر أمام عيني، من جديد.

وبينما يحترق كل شيء حولي، أصرخ:

- «أبوفيس»، عودي إلى صورتك الأولى!



(٣)

عَيْنٌ مُقْتَلَعَةٌ مِنْ أَثَرٍ قَدِيمٍ

## المسحور

بِوَابَةِ «خَنَسُو»<sup>(٣٩)</sup> قَنْطَرَةَ، تَسْحَبُ الْمَاءَ مِنْ مَجْرَى  
النَّيْلِ وَتَدْفُقُهُ دَاخِلَ الْمَعْبِدِ دَمًّا، يَتَفَرَّعُ فِي قَنَوَاتٍ  
عَنْكَبُوتِيَّةٍ تَجْرِي لِأَسْفَلٍ مِنْحَدَرَةً حَتَّى تَصَبَّ عَلَيَّ دَاخِلَ  
الْبَحِيرَةِ الْمُقَدَّسَةِ بِاسْمِي، تَضِيْعُ الشَّمْسُ خَلْفَ تَلَابِيحِ  
الْغَيُومِ، تَصْبَحُ بَوْرَةً وَاهِنَةً مِنْ ضَوْءٍ، سُرْعَانِ مَا يَفْتِكُ  
بِهَا الظَّلَامُ.

تَتَمَدَّدُ أَشْجَارٌ مِنْ الشُّوكِ وَتَضْرِبُ حَوْلَ كُلِّ جِدْرَانِ  
الْمَعْبِدِ، تَتَدَاخَلُ فِي بَعْضِهَا الْبَعْضُ، تَصْبِحُ نَسِيْجًا مُحْنَطًا

مِنَ الحطَبِ المتفَحِّمِ، يترامى مِن كُلِّ الاتِّجاهاتِ، يلتفُ  
على الأعمدةِ، يكفُّها بسماجهِ.

وهناك، في شريطِ النِّيلِ، تُولد تماسيحُ، تلتقط سيقانَ  
المراكبيَّةِ تنتزعها، تلقِيها على الضَّفافِ، يهدر الموجُ مِن  
حولها، تتقلبُ المراكبُ في بطنِ المياهِ، يتصايحُ الواقفونَ  
على ضفتي النِّيلِ، يتراكضونَ يحاولونَ إنقاذَ ما يُمكنهم،  
يستفحل الدَّمُ، تزداد كثافةُ الماءِ، يغلي، يصعد الدَّمُ  
حمماً، تثب التماسيحُ مخضبةً بالدماءِ، تغرس أنيابها في  
كُلِّ لحمٍ طريٍّ مُتاحٍ وفي كُلِّ الأخشابِ التي تطوّف على  
سطحِ الدَّمِ.

لستُ غاضباً، بغد، لكنني أضبط ملامحَ العالمِ الذي  
سأخلقه.

لن يصبح بإمكانِ أحدٍ أن يُدرك، كُلَّ شيءٍ سيصبح  
نافقاً على الضَّفافِ، الأسماكُ التي ستمتلأ خياشيمُها  
بالدماءِ ستفترش الشواطئَ، لحمًا عفناً، ستتصاعدُ الدماءُ  
إلى أعناقِ المعابدِ، والبيوتِ، بل سيتوغَّل الهلاكُ داخلَ  
متونِ المدينةِ، ولن تجري الدماءُ إلى الشِّمالِ، ستجري  
عرضياً، كأجنحةٍ تنبذرُ مِن أحشاءِ الموتِ، وبدلاً مِن  
أن يكونَ مطرٌ، ستكون دماءٌ، كأنَّ قلبَ السَّماءِ انفجرَ،  
تفسَّخُ، فسَّالَ.

الشَّلالاتُ القانيَّةُ ستهطلُ فوق رؤوسِهِم، وستهبطُ

معها الضفادع، ستغطس في حلوقهم، ستقتات على كل نافي، ستلطخ بأرجلها ملامحهم، ستتدافع في تيارات متلاحمة تركب بعضها بعضاً، تفتح البيوت، النوافذ، تتسلق القباب والمباني، سيتكدس بها فراغهم، ستصير الحفة لأجسادهم، سيصرخون، ومهما فعلوا، سينقطع عنهم الوعي بمستجدات البعث.

نقيق الضفادع صاخب داخل رؤوسهم، يعلو على صياحهم، لن يسمع أحد صرخة، إنما سيسمعون نقيقاً متواصلًا لا يهدأ، سيهرعون إلى الشوارع عرايا، سيفرون من منازلهم، ستتكشف سواءتُهم أمام أعينهم التي ترى الفرع متجسداً، ستمتلأ الشوارع بهم، سيلقون الرعب هناك كما في البيوت.

من الجيف والجثث سينبعث الذباب هائجا، يطن، يعزف نغماً متسقاً والتقيق دوماً نشاز، سيرتفع في أسراب متسابقة نحو الأفق كالقراطيس، ثم يعمر الفضاء، سيلتهم مواشيهم وأبدانهم وأعينهم التي رأث الهول، يتغذى على بصائرهم، ستذوب أجسادهم فيما ينسرها، سيندفع نحو كل الثقوب والحفر، ستبخه عليهم القنوات والمجاري والأنابيب والأنفاق والمصارف، وبينما يهرولون جزعاً وتساؤلاً، سيغطيهم الذباب كسجادة على رؤوسهم.

ستتقشر جلودهم، سيأكلها الوباء، لنْ تَبْقَى غير  
عظامهم، سيركضون في الشوارع هياكل، سيحتمون بأجساد  
بعضهم البعض وتنتقل العدوى وتستشري فيما بينهم، ثم  
ما أسرع أن يصبحوا جميعًا مجردين من اللحم، سيسود  
بينهم معنى جديد للعدالة، وستبدو المصائر لا نهاية لها،  
كانها انطلقت من أقدارهم صوب العدم.

يقوم الجعران، يقعقع، تصل رأسه أبعد من  
أبصار مَنْ نجا منهم، سيرش عليهم جعاريته الصغيرة،  
ستتكاثف كحبّات الصخر السوداء وتتساقط عليهم،  
ومن عند حواف الجبال المتهالكة ستطير نحوهم  
أسراب من الجراد، كأنها رصاصات بلون الدّم، رصاصات  
أسطورية، ستُكمل الوجبة التي تُركت من أنصارها،  
جيوش الحشرات ستسلح بالنهم والعطش، ثم تضخ  
من أفواهها النيران، ليحترق كل مَنْ قُدر له أن يحتمي.

أنا صورة القوى المتناغمة الهادرة، التي تفيض  
بالسرّ، أنا مرآة السّماء، ومبلغ التطهر والنقاء، سوف  
أهلك كل ما كان، ليكون من جديد.

كان كل شيء يشتعل، وكلّما سقاه الدّم، اشتعل أكثر  
وتوهّج.

## الطَّوَّاف

كحَيَّةٍ تلتهم ذيلها، كطفلٍ يَمَصُّ إبهامه، أراني محلَّقًا  
في دورةٍ مُغلقةٍ، أستمَدُ مِنَ الماضي جوهَرَه، وَمِنَ الغيبِ  
سِرَّه، كأني مادةٌ طاهرةٌ منتعشةٌ في سياقِ الحياةِ الَّا  
نهائيَّة.

على قارعةٍ وادي الملوك، الجبَّانة، حيث سيُدفن أبي،  
كبشٌ بقرنين ملولبين، وثعبان كوبرا ممشوق الرأس، وفي  
هودجِها المعلق تتهاذى «ماعت»، تقف فيما خلفها  
«أميت»<sup>(٣٠)</sup>، المهجَّنة، الأنثى المفترسة، رأسها كالتمساح،

نصفُها العلوي على هيئة الأسد، والسفلي على هيئة فرس النهر.

«أميت» تنتظر أن يطب قلب أحد الموتى على ميزان المحاكمة التي يرأسها «تحت»<sup>(٣١)</sup>، حيث إذا أصبح وزنه أثقل من ريشة «ماعت»، تنقض عليه تلتهمه، فيتحوّل، عند أن تهضمه، إلى عناصره الأولية التي كان عليها عند بداية خلقه، فيما قد يصبح ميت من هؤلاء المغضوب عليهم أسدًا شمسياً بمصر العليا، أو تمساحاً بمصر السفلى، في كل الأحوال هو يحرم من العبور إلى العالم الآخر جسداً وروحاً، ويبقى معلقاً هناك، في العالم التحتي، يخدّم العابرين.

وها هم يشرعون في إتمام مراسم التحنيط أبي.

يتقدّم كاهنٌ مراسم التحنيط، في يده عصا بصرية، معلق عليها جلد «أبيس»<sup>(٣٢)</sup> الثور، بلا رأس، إنّه الجلد الذي دثر فيه «ست» أبي بعد أن أهلكه، وألقاه في النيل، وللقدر؛ حَفِظَ هذا الجلدُ أبي من جعله غُرْضةً لبطون السمك وهَدَرَ الأمواج.

يلتف الكهنة حول جثمان أبي، ينثرون الماء المقدس، يقرؤون البرديات، تنفرد أمام أقدامهم السحاجيد، يخطون على تودة، الزورق يمرّ وسطهم، محمولاً على أكتاف الحرس، مؤخرته على زهر اللوتس، ومقدمته

برأس لبؤة، فوق الزُورق بعضُ العمّال يستكملون  
زخرفة الثابوت، يطعمونه باللآلئ والجواهر، وينقشون  
عليه جميع ألقاب أبي، أعماله ومآثره، يرسمون وجوه  
آلهته، ووجوه المعبودات المختلفة على أشكال الحيوان،  
يدقّون جوائبه بالمسامير المقروءة عليها الطقوس، يبطّنون  
حشية الثابوت بالمفارش المزخرفة والحلي وبرديات كتاب  
الموتى، كي يُمكن له أن يتلوها على «ماعت» التي تنتظر  
في الأعلى.

أمام غرفة مطلية بالذهب من داخلها وخارجها يستقر  
الموكب، يُحمّل الثابوت إلى الداخل، يضعون أجزاء أبي على  
منصة، ترافقه أمي، يللمون الأجزاء، يرتقونها، يركبونها  
على بعضها البعض، فيما انشغل بعضهم في عدّ القرابين  
وحصرها، ثم ذبحها وفق المراسم، واسترضاء الآلهة.

«أنوبيس»<sup>(٣٣)</sup>؛ الإله المُطهر، يقف ثابتاً على مدخل  
المقبرة، يُشرف على عملية بعث أبي، يرعى الكهنة فيما  
يحتطونه، يبعث إلى أدمغتهم الصيغ السحرية والنصوص  
المقدسة، سوف يُبشر وزن روح أبي ومحاكمتها، وسوف  
يفتح له الطريق إلى العالم الآخر.

سيدترك «أنوبيس» يا أبي في كفّك بغد أن يجملك  
ويزينك ويضمّذك، ستصعد على هيئتك القديمة،  
سيحرسك، سينوب عن الإله الأكبر في مرافقتك.



الكهنة يلصقون الأعضاء ويخيطونها بسوائل لها رائحة النشادر، تمتزج في بعضها على بطء، أحد الكهنة يحمل على طبق رخامي العضو المتبقي، يدسونه في الفراغ بين ردف أبي وهم يهتممون، يبدو العضو منتصبًا.

ينتشر البخور، وتعلو الترانيم الطقسية، وفي زوايا الغرفة ركع بعض الكهنة يبتهلون، وآخرون بدأوا يعملون على جسد أبي، يوضبونه للتحنيط، مسحون جسمه بالعطر، يدلقون من القوارير الزجاجية سوائل دافئة داخل فيه وبطنه، يُفرغون أحشاءه، يحفظونها في أوان نحاسية وقضبة كما تُرافقه في رحلته، ينظفون جوف بطنه بدقة، يحشون فتحتي أنفه بالقطن، ثم يجزون شعر رأسه بموس.

يدورون بالماء على جثمانه، يرفعون ذراعيه فساقيه، يشطفونه، ثم يجففون الماء ويدعون جسده بالزيوت. يكفنونه بالكتان وهم يُباشرون تلاوتهم، ويتركون قضيبه واقفًا نافرًا من خلال فتحة في القماش.

يطوقون أمي ويولونها ظهورهم، ترفع رداءها، تجلس على أبي، تلتحم فيه، تقوم وتقعده، يتلون جسم أبي، يسترّد دماءه، تشهق أمي في نشوة، يضمها أبي، تدب فيه حياة رمزية، بينما أصوات الكهنة من حولهما تترى متناغمة ترتل.

بغد قليل، تنسلّ أمي مِنْ بينهم، إلى الخارج، تُبَاشِر  
مراسم دفن أبي التي بدتْ ستطول، وفيما تفعل، كانتْ  
بطئها تنتفخ، تنتفخ بي، ما أسرع تكويني!

تسعة أشهر تصبح تسعَ لحظاتٍ خاطفةٍ، أرى أمي،  
وأراني باسقاَ أطلّ مِنْ رحمِها، وأرى «واجيت»<sup>(٣٤)</sup>؛ الأفعى  
الخضراء، تربّت عليّ ملتفةً زاحفةً، ثم تقطُر في فمي  
مِنْ بين أنيابها، تقطُر حليّيا.

أُمو، أترعرع، في الخلاء، تعوّذي مباركات أمي، وذكرى  
أبي، بغد أن يطردنا «سِت» مِنْ القصر الملكي إمعانًا في  
إحساسه بالانتصار على أبي، أجري بين السّهول، فوق  
رمال الوديان، أعبر المعابد والحصون والأنهار، أتبتن  
المعارف بالتجربة، أتعلّم الأسرارَ في قُدس الأقداس، وأمّي  
هناك؛ يلتئم حول مجالسها النَّاسُ، يستمعون لها،  
لحكاية أبٍ مغدورٍ، طافتْ المُقاطعات والأقطار تبحث  
عَنْ أَشْلائه، إنها الأم التي استطاعتْ، رغم فقدان الأمل،  
أنْ تُنجب ولدًا، على لونِ أبيه، على هيئته، بذات  
القدسيّة المباركة، ونفس التوّب إلى استرداد الكرامة،  
والحافز الدائم إلى استعادة المكانة المُهدّرة.

على نهج أبي؛ الطيب إلى أبد الدهر، مَنْ يمسح  
دموع الخلق، سأنضح، جسدي فارغ كجسد الثيل، لوني  
كالقمح، أولد وأزدهر مِنْ داخل الأرض لأخضب السماء.

## حسيب الجبل

خارث كل القوَى، مسح بـبصري أبسطة الأفق،  
وتساءلتُ كيف يُمكن أن ننجو من هذا الشرّ  
المُستفحل؟ كل الأسلحة نفدت على ما يبدو، إنَّ الرِّيحَ  
تدوِي، و«أبوفيس» تترنح هناك مزهوةً بانتصارها، ولم  
أكنُ أستطيع أن أرى غير الشُّعل التي تضوِي مثل  
النجوم القريبة، والسدم الرمادية أعلى الجبل تجول  
على استراحاتها.

وبغد أن لاح الظفر الثام لـ «أبوفيس» واستبد بها  
الفخر؛ بدا يتقلب الجبل.

ينفلق الجبل إلى شطرين، وبينهما يمتلأ المضيق  
بالموج الهادر، وعند أن ينقسم، تبرز منه أسراب من  
صخور مجنحة، مئات الصخور، وفيما كانت الصخور  
تنسلخ منه، تتحول إلى مراكب حجرية، تخفق إلى  
أسفل، تتدافع كالشهب، حيث الموج، تعبى بطونها  
بالماء، وسرعان ما تحلق صاعدة، بشكل دوري، تتقلب  
تكب الماء، كيما تطفئ النيران التي اشتعلت في جسد  
الجبل.

«أبوفيس» تحاول أن تعوقهم، تضرب بأجنحتها  
تسقطهم في لجة المياه، وبدت محاولاتها عبثية، كلما  
أسقطت صخرة مجنحة ولدت من أحشاء الجبل أخرى،  
دون انقطاع.

دارت «أبوفيس» حول جوانب الجبل تنفث الحمم  
ثانية، لم تستطع أن تلاحق الصخور التي أنقذت الجبل،  
في حين بدت حائقة، تصيح:

- أهؤلاء هم جنودك أيها الكهل؟!

في غمرة الانطفاء، تضخمت الحيات والذئاب والأرانب  
يصدون عن الجبل النار، تناولت قاماتهم، صاروا على

رؤوس حيوانات وجسوم عمالقة، سدّوا كلّ الثغرات التي كان بإمكان «أبوفيس» أن تتسلّل منها إلى الجبل باللهب.

سمعتُ صراخها الحانق، وهي تنقضّ من جديد وعلى انخفاض أشدّ، تهبط بسرعةٍ إلى أسفل، تدور في حلقاتٍ، تتألق بطنها بالنار، تلسع بلسانها المزدوج ظهرَ الجبل، كسوطٍ، وبدا لسانها ينزّع ثوبَ الجبل الصخري فتتفرّق الحجارةُ متراميةً إلى ظلّمة السماء.

في ظلّ انشغالها بالعجز، أدك عصا في بطن الأرض، تشقّق الصخور، تنيثق تماثيلَ قططٍ حجريّة سوداء، أعينها ملفوفة بالكتّان، تستطيع «أبوفيس» أن تلمحهم وهم يُستبْعَثون، والأغطيّة الكتانيّة تتساقط عن أعينهم، فتشعّ، تصرخ «أبوفيس» فرعةً، تعرف أنها هُزمت من قبل على يد هؤلاء الجنود، تلمّ لسانها وتحلّق مبتعدةً إلى السماء، القطط لا يتركون لها فرصةً سانحةً للهرب، تتضخّم أجسادهم، تلمع أعينهم، تستطيل أظافرهم، يمدّون أيديهم نحو «أبوفيس»، يموؤون في قوّة راعدة، كأنهم يزارون، يتطابق لون أجسامهم والظلام، تتداخل أياديهم وتتشابك الأظافر المسنونة، يصبحون شبكةً محلّقةً، يلتصقون بجسد «أبوفيس»، يقتحمونها بمخالبهم، تتقلب في الهواء، تضرب بذيلها عبثاً، يبترون أجنتها، تفتح بصوتٍ متعذبٍ.

يخفت وهجُ النار الطالعة مِنْ فيها، يتقطع،  
القططُ تتكالب عليها، يغرسون مخالِبهم وأنيابهم في  
بطونها كخطاطيفٍ، تقع مِنْ حالي، تسقط متكومةً في  
ساحةِ المعركةِ، على صدرِ الجبل، لا تستطيع الفكّاكُ  
مِنْ شبكةِ القطط.

يتجمّع الجبلُ ثانيةً، تلتحم به صخوره، يضرب شعاعُ  
مِنْ شمسٍ عيني، أدنو مِنْ «أبوفيس»، تئن، أرشها بالماءِ  
المقدس فيذوب جلدها، تفخ في ألمٍ وهي تتلوّى، تصبح  
بصوتٍ متهذجٍ:

- لا تظنّ أنّك انتصرت أيّها الكهل!

- هذه المرة على الأقل.

- سيّدي لا يموت.

- سيضطرّ أن يعيش في مملكةِ الظلام.

ورغم هزيمتها تضحك، تنبعث منها رائحةٌ كالشواءِ.

- هل تعتبر هذه معركة؟

- اعتبره انتصارًا.

- آه أيّها الكهل، أنت لا تعرف شيئًا، إنّهُ انتصارٌ

مؤقت إلى أن يكتمل الجنود.

- ساكون مستعدًا في كل مرة.

- غيري سيطاردك، مَنْ هو بمثل ألف قوةٍ مِنْ قوّتي.

- ألا تخشين أن أهلك اليوم بضربةٍ واحدةٍ؟

- ألم أقل إنك لا تعرف شيئًا!

وزحفت نحوي قليلًا:

- مثلي لا يهلك.

- مثلك يعود إلى الأرض.

ونزلت عليها بالعصا، فحّت وهي تفتح فكّيها،  
صحت فيها:

- ارجعي إلى صورتك الأولى.

ضمت ما بقي من أجنتها، وراحت تضمر، وكلما  
تقلص جسدها فحّت، تحوّل فحيحها إلى أناتٍ خافتةٍ،  
وتحوّل ذيلها إلى جذرٍ، ولسانها إلى لُحَاءٍ، بينما أجنتها  
راحت تتصاغر، تتبدّل إلى أفرعٍ، وانطفأت النار تمامًا،  
و«أبوفيس» تشدها الريحُ، يلفظها الجبلُ، تطير في

الأفقي، تحطّ هناك، جوار التمثالين، على هيئتها التي  
تخفّت فيها، شجرة جميز، صارت عجوزاً، يشقّ عليها  
القيام ثانية.



## الطَّوَّاف

تُقَرَّعُ الطَّبُولُ، تَدْوِي الأَبْوَاقُ، يُحَيِّدُ الحِرَّاسَ أَنْفُسَهُمْ  
وَيَكْتَفُونَ بِإِبْعَادِ الحُشُودِ عَنْ دَائِرَةِ الْقِتَالِ، يَلْتَقُونَ  
يَحْوَطُونَ الحَلَقَةَ المَبْلُطَةَ بِالحِجَارَةِ المَلُونَةِ وَهُمْ ثَابِتُونَ.

«سِت» يَلْمَعُ فِي دِرْعِهِ الذَّهَبِي، أَرَانِي وَاقِفًا أَمَامَهُ  
مَاشِقًا رَمَحِي، يَهْتِفُ سَاخِرًا:

- ابْنُ أَخِي البَرِيِّ، كُنْتُ أَحْسِبُكَ صَبِيًّا لَنْ يَهْجَرَ  
الحَقُولَ وَالزَّرَاعَةَ! هَلْ تَعْرِفُ مَاذَا سَأَفْعَلُ بِكَ الْيَوْمَ؟

دنوت بالزّمع مِنْ صدره فتراجع ضاحكًا في شماتة:

- يَدُكَ طَرِيَّةٌ عَلَى الطَّعْنِ يَا فَتَى.

حشودٌ تقفُ تتفرّجُ مِنْ عِنْدِ أَسْفَلِ الدَّرَجِ الرّخامي،  
تلوّحُ بأيديها، تهتفُ باسمي، تقفُ أُمِّي بينهم يتّقد  
على وجهها الحماس، تهتفُ معهم بغد أن استطاعت أن  
تستقطبَ عددًا لا يُستهانُ به مِنْ الكهنةِ وخَدم القصر  
والمعابدِ، فضلًا عَنِ الشَّعْبِ الَّذِي تَأْتِي قَدِيمًا عَلَى أَبِي،  
وتجمّع ليناصري.

- «سِت»، هل ظننت أن أبي مات؟!

شقٌّ بضحكته سقف المعبد وصاح:

- لم يمت بالطبع..

وصفعني برمحه على خدي:

- إنه يسكن الظلام هناك، حبيسًا في مملكتي.

- أحسدك على هذه الزّوج يا «سِت».

- بل أحسدك على جرأتك وطموحك يا «حورس»  
المسكين.

وانقضَّ عليّ، رفعتُ الدَّرعَ أحتمي، ضربه برمحه  
مرتّين فانبهّج، ركعتُ، وكاد يسقط بالزّمحِ على رأسي  
لولا أنّ دحرجتُ نفسيّ مبتعدًا عنّ مساريه، انفلتُ  
رمحي منّ يدي، رأيته يهرول قافزًا عليّ منّ موقعه،  
صرختُ أمي، وانكمتُ الحشودُ، لكنني سرعان ما  
استللتُ سيفي ورشقتُه نحوّه، عطّف كوعه بالدَّرع  
وخرج منّ قلبِ الدَّرع دخان أسود، استطاع أنّ ينحني  
برأسه فمرّق نصلُ السّيفِ لامعًا جوار قرطه وانغرس  
في الجدارِ خلفه.

- مَن علّمك القتالَ؟

وحَدّج أمي هازئًا:

- لا يعلم الرّجالُ القتالَ إلّا رجالٌ مثلهم، أمّا النساء..

وزعق صارخًا:

- يجلبن أشلاء أزواجهنّ منّ على الضّفاف.

واندفع نحوي، توالث ضرباتُ رمحه على ظهري،  
ضربةً فأخرى، أنبطحُ رغماً عنّي، الحشود يشهقون  
خوفًا على مصري، أو لعلمهم يشهقون على مصريهم  
منّ بغدي، غير أنّ أمي في عينيها إيمان بمقدركي، كثرث  
وهي تصيح:

- انهض، لم ينتهِ القتال بعد.

صاح «ست»:

- هل ظننتم أنكم اتفقتم على الإطاحة بي؟

ورمى الكهنة والموظفين فبدا التخوف على وجوههم  
إن مالت دفعة المعركة لصالحه بعد أن تألبوا عليه.

طويث جسدي والتحمت برمحه، ثبتته على الأرض، ثم  
انتشلتني من يده في عنفٍ، تراجع مذهولاً من قوتي المفاجئة.

ارتكزت على الرمح واستقممت واقفاً:

- أراك عجوزاً يا عمي خارت قواك.

اكتسى وجهه بتعبيرٍ ساخرٍ وابتسم:

- في ذراعي هذه قوة مئة صبيٍّ مثلك.

ورفع عضده يشدّ على عضلاته:

- لا عقابهم لي بالنفي ولا إبعادي عن القصر سيحسن  
الأحوال، سأعود لأقتض منهم جميعاً، بعد أن تموت على  
يدي مثلما مات أبوك، لكن هذه المرة لن أكتفي بتمزيقك،  
بل سأحرقك، وقتها لن تبقى أشلاؤك كي يللمونها.

- أشلائي حيثما ينبغي أن تكون أشلاء أبي، مقدسة يا  
«ست».

طار نحوي بسيفه غاضبًا، استقبلته على درعي  
وطوحته فارتطم بعمودي، كدت أنهال عليه ثانية لولا  
أنه زحف في سرعة وقبض على ساقِي، أسقطني على  
ظهري، لكنه قبل أن يشب ناهضًا اعتليته، ضمت  
قبضتي ونزلت على رأسه، ترنح، بركبتي تمكنت من  
ساعديه، واحتجزتهما أسفل مني، دُست عليهما، نازع،  
حاول أن يفلتهما، بلا جدوى، وبينما كانت يدي تلکم  
رأسه وتنزع قرطيه فيكز على فكيه، أخذ جسدي  
يتمعدن، يكتسب لونًا ذهبيًا، وخرج من خلف أذني  
قناع أسود، تفرع علي، التحم بوجهي، فصرت على  
هيئة الصقر، وثقل جسمي بالذروع الالامعة، وبمنقاري  
طرقت درعه، في قوة وصلادة، انثقب، تفتت، تناثر  
حواله كسطايا من زجاج.

شد جسمه، تقنّع بدوره، خرج قرنان من رأسه، وكان  
شعر صدره راح يتحول إلى زغب وریش، وسرعان ما  
رفعه من تحتي جناحان قُدا من ظهره، تثبتا في الأرض  
وأقاماه، نهض بي، اندفعنا معًا، طرنا، سقطنا وسط  
الحشود، تراجعوا، التفوا حولنا، التحمنا، كتمت أنفاسي،  
شددت جسدي، خرج جناحاي، تشابكت الأجنحة، دُرنا  
في الهواء، اصطدمنا بالأعمدة فمضت تهاوى متهشمة

فوق رؤوس الجموع، تفرّقوا يحتمون بكثبان الرّمْل عند  
آخر المعبد، فيما بأعينهم يراقبون المعركة، ونحن نكسر  
الحجارة والأعمدة.

أحاطني بجناحيه، بينما استطعتُ أن أحكم قبضتي  
على سيفي، فمزّرتُه عبر جسمه، شجّ درعه واستقرّ في  
أحشائه، تقلّص، نفضني عنه، زام، حلّق لما خلف بوابة  
المعبد، سمعتُ صرخته وهو يدور في الهواء، يقع هناك  
هامداً، وجّ الغبار وهاشت الأتربة أمام الأعين.

حططتُ بقدمي واقفاً، هزّت أُمّي رأسها فرحةً، تنفّستُ  
بسرعةٍ، وسحائب الغبار تطفو حول بوابة المعبد.

ولم أكّد أخلّع قناعي وجناحي حتّى دارت فوق رأسي  
حلقة ترابٍ كثيفة، ارتمت من خلف البوابة بسرعةٍ  
كطرفه عينٍ، حاولتُ صدّها، لكنّها قلبتني رأساً على  
عقبٍ، فقدتُ اتّزاني، كممتني الحلقة، غامت الرؤية،  
طارَتْ بي الحلقة من بين الحشود إلى حيث المنصة،  
لمّني «سِت» داخل جناحيه، تحوّل ريش أجنحتِه الأسود  
إلى أسنّةٍ مشتعلةٍ تطلق شرراً، غرس الأسنّة في جنبي  
واحداً واحداً، عضضتُ على شفّتي، ناحث أُمّي هناك  
من بين الجموع المراقبة، لم أرها، لم أكن أرى شيئاً. كان  
جسدي مُحاطاً بكامله بالغبار الكثيف.

رأيتُ عيني «سِت» تلتمعان احمراراً، كلبشت في

صدره لكته كالب عليّ، لهبُ عينيه لَفَحَ وجهي، احترق  
جلدي، أدرتُ وجهي أَكْزَ على أسناني، كان دمي يسيل  
مِنْ خصري وَمِنْ ظهري ورقبتي، ينحدر إلى فمي، دُقْتُ  
طَعْمَ دمي كما ذاق أبي.

في لحظةٍ خاطفةٍ كان «سِت» قد شواني بداخله،  
وبينما احترق، دبّ في عيني سنّ جناحه، خرج بها،  
صفاها، ورماني أمامه مُتهالكًا.

فُزَعَتْ الحشود، قفزت أمي، تركها «سِت» ترمي عليّ  
وتحاول سدّ جراحي، ووقف هو متباهيًا، أدار عينيه في  
الكهنة منذرًا، رفع جناحه لأعلى، كانت عيني هناك،  
تقطر الدّم والسوائل، وتلمّع ببريق غمر العيون.

فرّت الحشود هاربةً عندما استخلص «سِت» عيني  
مِنْ سنّ الجناح ونثر دماءها عليهم، لاحقهم بالنار،  
بخّ مِنْ فَمِهِ كُتْلَ اللّهب، اكتوى قلبُ المعبد، اشتعل،  
وفيما كان واقفًا هناك يُبَاشِرُ بأسه وانتصاره، ركع  
الكهنة جميعًا تحت قدميه يستسمحونه، لم يبال بهم،  
أطلق صرخةً مدويةً ارتجّت لها أركانُ المعبد، وضريني  
بقدمه فدارت أمي معي نتدحرج إلى أن غطّانا الزمل  
في أرض المعبد.

أبصرتُ شعاعًا قادمًا مِنْ عَيْنِ أمي، تراكمت دموعها  
في قاع عيني المقلوعة.

لم أكن أستطيع تحريك أطرافي، ولا كان باستطاعتي  
تحريك شفتي كي أودّع أمي، مسدّتي، ناحث علي وهي  
تمسح ريش جناحي بأناملها.

فقط كان ثمة شعاع آخر، أبصرته مُقبلاً من عند  
بطن الجبل، مدفوعاً من جوف حفرة مظلمة، يقطع  
الأماكن في ملح البصر، يمرّ في جسدي، يشقّه، يحملني  
معه، أطوّف كالومضات، ثم دوامة من الهواء تطوي  
كل المشاهد في داخلها، تدور بها وتدور، تعصف، حتّى  
تبتدّد مضويّة عند أفق الرّؤية.

أستخرج من بوابة بين تمثالين، بوابة تنغلق، وتحصرني  
في عالمي القديم مرّة أخرى.

كأنّي استفقت من حلم!

أسترّد أنفاسي، أتفقّد جسدي، أخبطه، أحسّس على  
عيني، الشّمس فوق رأسي غاربة، والريّح ترفّ بجلبائي،  
أسعل والتراب يدخل إلى أنفي، أشطف عيني بالماء،  
وأستعيد بالله من شرّ الغيبة.

تنفرط الأرض فيما خلف تمثالي «ممنون»، تنفرط  
خضراء تضمّخها ألوان المغيب الشّاحبة، يسترسل  
التمثالان في نشيديهما الجنائزي، ذلك عندما أتابع  
بعيني الشّعاع وهو يفارق جسدي، ليسبح بعيداً،



ويستقرّ على ضفة النيل، ثم يتبدّد في الماء.

تُرى يا جدي أيُّ سحرٍ هذا؟

ألملم نفسي، ولا أكاد أقف منصرفاً حتّى أشعر  
بجسدي يتمزّع، كأنّ إبراً تغزّه في كلّ مسامه، كأنّ سيخاً  
يحشّ أعماق روحي.

أشقّ الجلباب لنصفين رغماً، لا أحتمل هذا الألم، ثمّة  
ما ينبعث منّي، كالينبوع يتفجّر من صخر، الدماء  
تخرج من عمق بطني، يسخّها فمي، أصرخ.

أغرق في العرق، في الصراخ، أشعر كأني أتشظى.

كانت ذراعاي قد تصلّبتا، تدفقت فيهما عروق دم  
نابضة، مزجت بعضها بعضاً، قُبث بارزة عن جلدي،  
منقوشة على رسم جناحين، جناح على كلّ ذراع، راحا  
يتفرّعان، ينتشران من كتفي، ثمّ إلى ساعديّ، فكفيّ،  
واشتعلت عينا، تبدّل محجراهما، صارا مستديرين، إلى  
أن طقّ منهما ضوء، غمر المشهد كلّها.

ريشٌ ينبت من صدري، من وجنتي، من بين  
العظام، فيما ببطء، يتكلّس ظهري، تنفر عظامه  
خارجة، يتشقق الجلد، يتهدّل، فاستطيع أن أرى شفّتي  
تتمدّدان متشّختين، تلتئمان بأنفي، تشرع حوافهم في

تكوين منقار، فانطلق إلى السماء محلّقاً، تستولي علي  
إرادة أعظم مني، أرفرف في الهواء مفزوعاً.

أرى العالم كلّ نقطة بعيدة سرعان ما تتلاشى متبدّدة  
داخل نفق ظلامي.

أسمع أنين الموتى وصراخهم، أراهم يُساقون إلى  
الجحيم عبر ممزّ سفلي يحكمه الشرّ.

وأراني على هيئة الصقر، وسط النجوم، فيما لم أكن  
أستوعب هذا الانحراف في مصيري.

وعلى فناء العالم أشرف، أحلق بين النهايات، أرمم  
هَدَد الأطلال وأضبط موازين الموتى، تلك شريعتي،  
وهذا قدرتي، أحلق فوق كلّ شيء، بهيئة الصقر، وترتّع  
روح الشرّ، ترتّع لا تصدّها قوّة، روح الشرّ سوف تسكن  
هذا العالم، ولعلّ معركة أخيرة، فاصلة، تُعيد ترتيب  
كلّ المصائر، من بعد.

يَتَّبَع

«أسطورة ثانية»

## هوامش

- ١- رَع: إله الشَّمس عند قدماء المصريين.
- ٢- مركب الشَّمس: مركب مقدس يعبر بها رَع النيل تحت الأرض كل ليلة ليُشرق في الصُّباح.
- ٣- تمثالاً ممنون: الأثر الوحيد المتبقّى من معبد أمنتبب الثالث بغرب الأقصر.
- ٤- الشاويشة: خرافة أقصرية.
- ٥- يُرجى مراجعة الفصل الأخير من رواية الخاتن للكاتب والصادرة ٢٠١٦ عن دار مصر العربية.
- ٦- الرَّمسيوم: أحد معابد مدينة القرنة بالبر الغربي بالأقصر.
- ٧- نوو: أوّل آلهة المصريين القدماء، ويمثله الماء.
- ٨- سورة (المؤمنون)، آية (٦٢).
- ٩- الجاثوم: حالة تحدث عقب الاستيقاظ تسمّى شلل النّوم.
- ١٠- سورة (يونس)، آية (٦٢).
- ١١- أسطورة خلق الكون عند قدماء المصريين.
- ١٢- كا: هي روح الميت التي تبقى بعده عند قدماء المصريين.

- ١٣- حابي: إله النيل عند قدماء المصريين.
- ١٤- أبوفيس: رمز الشرّ عند قدماء المصريين.
- ١٥- أبدجو: نوع من الأسماك لونه أزرق يقوم بمصاحبة مركب الشمس وحمايتها خلال مرحلة عبورها الليلي.
- ١٦- العالم السفلي: هو العالم الذي تمرّ فيه مركب الشمس خلال دورة الاثنتي عشرة ساعة أثناء الليل.
- ١٧- ست: إله الصحراء والعواصف والظلام والفوضى في الأساطير المصرية القديمة.
- ١٨- أوزوريس: إله البعث والحساب ورئيس محكمة الموتى عند قدماء المصريين.
- ١٩- المسحور: خرافة أقصريّة.
- ٢٠- الأواني الكانوبية: استخدمها المصريون القدماء خلال عملية التحنيط لتخزين وحفظ أحشاء الموتى للأخرة.
- ٢١- حورس: إله مصري قديم، وعنصر من عناصر تاسوع أون المقدّس.
- ٢٢- ماعت: إلهة الحق والعدل والنظام عند قدماء المصريين.
- ٢٣- من بردية مصرية قديمة.

- ٢٤- سا: أحد خَدم مركب الشَّمس.
- ٢٥- حو: أحد خَدم مركب الشَّمس.
- ٢٦- التَّاسُوع المَقْدَس: يَضُمُّ أَقْدَم وأشهر الآلهة المصرية القديمة مَمَّن تدور حولهم الأساطير التي تتحدَّث عن بدء الخلق والصِّراع بين الخير والشرِّ.
- ٢٧- ساتت: إلهة الحرب والخصوبة والفيضان وحامية الجنوب المصري عند قدماء المصريين.
- ٢٨- خنوم: إله على شكل كبش عند قدماء المصريين، زوج ساتت.
- ٢٩- خنسو: إله القمر عند قدماء المصريين.
- ٣٠- أميت: أحد آلهة المصريين القدماء.
- ٣١- تحوت: إله الحكمة عند المصريين القدماء.
- ٣٢- أبيس: ثور يرمز للخصوبة عند قدماء المصريين، وكان يتَّوَجَّج بوضع قرص الشَّمس بين قرنيه.
- ٣٣- أنوبيس: إله الموت والتَّحْنيط والعالم السَّفلي عند قدماء المصريين.
- ٣٤- واجيت: أفعى خضراء، إحدى معبودات المصريين القدماء.

# نَعَشْرُ الْجِنِّ

أدهم العبودي موهبة استثنائية، لا ينافسه أحد ولا يقاربه أحد في موهبته، له عالمه بخصوصيته الفريدة، فهو يمتلك لغة الصّور البصريّة، ويلتقط بعينه ما لا نراه، بهاء طاهر - الأهرام

أدهم العبودي لديه ولع بوصف ورصد وتصوير بقايا الحضارات الغابرة والذكريات المقيمة المتعلقة ببقايا تلك الحضارات داخل نفوس البشر وعلاقاتهم ومعتقداتهم.  
د. شاكر عبد الحميد - القاهرة

يحاول أدهم العبودي خلق الأسطورة التي تؤرّخ لانبثاق الإثم في الكون، ليضع البشر وأصله تحت المجهر، لعلنا نعرف، ولعلنا نصبح أفضل إن عرفنا، وإن عملنا بما نعرف.  
د. منير عتيبة - عالم الكتاب

الأسطورة تتجسّد أمامهم، تخرج من كتب الخرافات التاريخيّة ومن متون الحكايات لتقلب عالمهم رأساً على عقب، ثلاث بوّابات: مائيّة ورمليّة وجبليّة، تنفتح، ليسطو البشر على عوالم البشر، هل للتلاسم الطقسيّة العتيقة والسحر علاقة باستنعات البشر؟ كيف يمكن محاربة الجنّ وكائنات العالم السفلي وجنود الظلام وآلهة العالم القديم والمعبودات الحجرية التي تبعث من الزماد؟ ما هي التعاليم والأسرار المقدّسة وعلوم التدرجات الزّوجانية التي يمكن أن يستخدمها البشر في حربهم مع ممالك العالم السفلي؟

## أدهم العبودي

روائي مصري، حاز على عدّة جوائز منها: جائزة الشارقة للإبداع العربي وجائزة اتحاد الكتاب وجائزة IREAD وجائزة إحسان عبد القدوس وتنويه جائزة دبي الثقافية. اختارته مؤسسة P NEWS شخصية العام الثقافية في ٢٠١٧، ترجمت أعماله للعديد من اللغات منها: الإنجليزية والفارسيّة والألمانية والفرنسيّة. له العديد من الإصدارات الرّوائية، منها: الأولياء والظيّبيون وحارس العشيق الإلهي وبينما نموت وباب العبد والخائن وغيرها. تُدرّس أعماله وتناقش في رسائل ماجستير ودكتوراه في العديد من الجامعات العربيّة منها: جامعة المسيلة وجامعة بجاية بالجزائر، وجامعة جنوب الوادي وقناة السويس ومعهد الشينما بمصر، والجامعة الأمريكيّة بسوريا. تتصدّر رواياته قوائم الأعلى مبيعا في المكتبات العربيّة، كما تمّ تكريمه في الكثير من المؤتمرات والملتقيات الدوليّة.

